إملشيل
الذاكـــــــرة الجماعية

إعداد: باسو أوجبور
لحسن أيت الفقيه

منشورات جمعية أخيام في إطار برنامج جبر الضرر الجماعي

مقدمة

يسرني أن أقدم للقارئ الكريم منتوجا قيما لجمعية أخيام في إطار برنامج جبر الضرر الجماعي، الذي يشرف على تنفيذه المجلس الاستشاري لحقوق الإنسان، في الشق المرتبط تمويله بالاتحاد الأوروبي، تحت الإشراف التقني لمؤسسة صندوق الإيداع والتدبير. فمنذ الإعلان عن الخطوط التوجيهية بتاريخ 21 يوليوز 2008 في العديد من المواقع الإلكترونية كموقعي مؤسسة صندوق الإيداع والتدبير والاتحاد الأوروبي والموقع الإلكتروني للمجلس الإستشاري لحقوق الإنسان، تم تنظيم دورتين إخباريتين على المستوى المحلي بتاريخ 27و28 يوليوز 2008 لشرح الخطوط التوجيهية، والإجابة عن الصعوبات التي تواجه الجمعيات فيما يتعلق بملء الطلبات الأولية.

ومنذ ذلك الحين، بدأت جمعية أخيام تعد العدة للمشاركة استجابة لعرض المرحلة الأولى. وبفضل تجربتها، توفقت الجمعية في تعبئة خطاطة الاتحاد الأوروبي، وتم الاستجابة لطلبها، حيث وقعت عقدة إنجاز مشروع (مركز التوثيق فاضمة وحرفو).

وفي يوم 20 نونبر 2008 صادقت التنسيقية المحلية لجبر الضرر الجماعي بالرشيدية على الجمعيات الحاملة للمشروع عدا اعتراض عضو واحد، وتحفظ عضو آخر.

يهدف المشروع عامة إلى النهوض بالتنمية بحفظ الذاكرة، وتقوية الحكامة الجيدة، والتحسيس بحقوق الإنسان.

ويهدف خاصة إلى تحقيق ما يلي:

-حفظ تاريخ أسيف ملول وذاكرته، بإنشاء مؤلف عن وقائع المقاومة لدى قبيلة أيت حديدو.
- تقوية قدرات الفاعلين المحليين.
- تفعيل مسلسل الحكامة المحلية.
- تنشيط برنامج التربية على المواطنة وحقوق الإنسان.
- إدماج التربية على المواطنة وحقوق الإنسان في برامج محو الأمية.
- المرافقة والتوجيه القانوني للضحايا، وخاصة النساء.

أما النتائج المتوقعة من خلال المشروع فيمكن إجمالها في ما يلي:
- تشغيل المركز(مركز التوثيق فاضمة وحرفو).
- إصدار كتاب حول الذاكرة الجماعية للمنطقة.
- تكليف منشط منقطع لتنسيق أنشطة المركز، وضمان ديمومة وظيفته.
- تكوين 25 فاعلا جمعويا، ومرافقة عشر جمعيات تنموية بتكليف متفرغ واحد يتكفل بإنجاز تللك العملية....الخ.

وبصدد كتاب (إملشيل الذاكرة الجماعية) فهو من إنجاز الجمعية، تحقيقا لأحد الأهداف الخاصة للمشروع المذكور. وقد انقطع لتأليفه السيدان باسو أوجبور- الشاعر الأمازيغي والفنان من قبيلة أيت إبراهيم - ولحسن أيت الفقيه - الباحث في التراث الثقافي بالأطلس الكبير الشرقي.

يتضمن الكتاب مقدمة وفصولا تتناول تعريفا للذاكرة، والأسس الثقافية للمقاومة في الأوساط القبلية المغلقة، ومقاومة قبيلة أيت حديدو من خلال الشعر الأمازيغي. ويتناول أيضا

مقاربة لإشكالية المقاومة لدى قبائل أيت حديدو، ثم «السونتات» بين حسن الطبيعة وبؤس الذاكرة.

وعملا باقتراح بعض أعيان المنطقة الذين استشارتهم الجمعية في شهر شتنبر 2009، استقر الرأي على إدراج فصل يتعلق بأعلام التصوف والمقاومة والفن من قبيلة أيت حديدو. عرض الكتاب مسودته للنقاش في اجتماع خاص يوم السبت 03 أبريل 2010، فتبين أن درب البحث في ذاكرة المنطقة طويل للغاية. وقد التزمت الجمعية بتشجيع البحث في الموضوع، والتركيز مستقبلا على بعض التيمات والمواضع، كجماعة أوتربات، والنضال السياسي المصاحبة لأحداث 1973.

وتود الجمعية أن تشكر كل الذين ساهموا في إنجاح هذه التجربة، سكان أسيف ملول، وأسلاتن، وإملشيل الشرقية، والفاعلين الجمعويين، والثقافيين.

وتنوه بالإشراف التقني الرائد لمؤسسة صندوق الإيداع والتدبير، والدعم اللامشروط للمجلس الاستشاري لحقوق الإنسان، وخاصة مكتبه الإداري الجهوي بجهة مكناس تافيلالت، والاتحاد الأوروبي ممول المشروع. وهي بداية متواضعة، لكننا نخالها متفوقة. وسيكون لنا موعد مع القراء في المستقل غير البعيد يوم إصدار مساهمة أخرى في تدوين ذاكرة أيت حديدو وتراثهم الشفوي.

وبالمناسة، أود أن أشكر السيدين باسو أوجبور، ولحسن أيت الفقيه، على مجهوداتهما لكشف الحقائق التي كانت مهملة من طرف التاريخ الرسمي. وكل ما تطمح إليه الجمعية هو أن يكون هذا العمل محفزا لباقي البحوث، لسبر أغوار تاريخ

المنطقة وذاكرتها، والدفع بمسلسل التنمية الاجتماعية والاقتصادية إلى الأمام.

إملشيل في 03 أبريل 2010

الحو مرغين

رئيس جمعية أخيام

إشكالية الذاكرة في منطقة إملشيل

لما كان من الصعب تحديد الخصائص النوعية للذاكرة تحديدا جامعا مانعا، فإن التعريف العلمي للذاكرة غير ناضج في الحال. وبالمقابل، يمكن بيان مفهومها من خلال دواعي الاهتمام بها، ومميزاتها عن التاريخ، والتاريخ الراهن.

01- الذاكرة والتاريخ: التقاطع والاختلاف

لبيان الاتصال والانفصال بين الذاكرة والتاريخ، يبدو مفيدا التطرق إلى وظيفة الذاكرة وتجلياتها ومميزاتها.

أ-وظيفة الذاكرة

من وظائف الذاكرة تنمية الشعور لدى المواطنين بالانتماء إلى جماعة سياسية أو عرفية، تؤمن بالحق والواجب. ويهدف الاهتمام بالذاكرة إلى فظ كل جريمة ضد الإنسانية، والعمل على عدم تكرار ما جرى.

ب - تجليات الذاكرة:

تتجلى الذاكرة أحيانا في الأوهام والأحلام، وفي القصص والملاحم البطولية والأشعار. وفوق ذلك، فهي منظومات من القيم والرموز، وأنماط التفكير والتعبير. ويمكن ملامسة الذاكرة في الأماكن والمآثر المادية، وفي التقاليد الشفاهية، كطقوس الانتصار، أو الخوف والتحصين. وتستشف أيضا في مظاهر الانغلاق الثقافي أوالانفتاح .

ج- مميزات الذاكرة:

تعتبر الذاتية واحدة من مميزات الذاكرة،لأنها تنحصر في المعيش اليومي، وبالتالي، يجوز تملكها، فيصح القول، إن الذاكرة ذاكرتي والذاكرة التاريخية ذاكرتنا. ولا يجوز القول، إن التاريخ تاريخنا، فهو تاريخ عام، وإن نسب لجماعة ذات خصوصية ثقافية، أو إثنية متجانسة. فالمفيد نعته بالذاكرة التاريخية. وطالما التهمت الذاكرة التاريخ مع انطلاق الدولة الوطنية في الغرب. ومع ظهور بعض القوميات بعد الحرب العالمية الثانية، والذي تزامن وحركة تحرر بلدان كثيرة في أفريقيا وآسيا، حيث ظهر تاريخ تلك الدول القومية كما لو كانت كيانات سياسية قديمة. وهنا يجوز الاستشهاد بتاريخ موريطانيا، وبلجيكا، ومعظم دول أفريقيا جنوب الصحراء.

وتتميز الذاكرة أيضا بالاستمرار في الحاضر، وامتدادها في المستقبل، وقابليتها للتغيير، تبعا لتغير الاختيار السياسي للدولة الحاكمة، أو تغير الرموز الثقافية تحت وقع التحولات الاجتماعية بالوسط. ويفترض في الذاكرة النسيان لأنها الماضي في الحاضر. والنسيان ضروري أحيانا لتجاوز بعض العقد. فمن ذلك مثلا، تغافل فرنسا عن تدريس واقع حكومة فيشي بعد انهزامها أمام ألمانيا النازية إلى حدود وقت متأخر. وكذلك فعلت الشيء نفسه في شأن حرب التحرير الجزائريةن حيث ينظر البعض إليها أنها جرائم اقترفت ضد فرنسا، في حين تعد حرب التحرير الجزائرية تدوينها وتوثيقها وتدريسها في المدارس عمل الذاكرة. وبالمقابل، ترى الجزائر

عكس ذلك، حيث يفرض عليها حسها الوطني تمجيد حرب التحرير.

والذاكرة جزء من القصة لتضمنها أبطالا واقعيين، أو خياليين، واشتمالها على عقد كثيرة، كالإهانة، والانتصار والتفوق. وفضلا عن ذلك، فالذاكرة تكون جماعية أو جمعية، مادامت الذاكرة الفردية تقوم دائما في إطار اجتماعي محدد. وتعتمد الذاكرة على المخيال، لذلك طالما يعبر عنها في نصوص أدبية، أو رسوم فنية، أو لوحات معبرة، أو مختلف أشكال الإبداعات الأخرى. وفي هذا الصدد، تعد الطوابع البريدية المغربية المعبرة عن الكثير من الأحداث والمناسبات عملا في الذاكرة، لأنها تحتوي على رموز فنية، وصور، ورسوم تجعل الحدث الذي تعبر عنه ذا استمرارية في الحاضر والمستقبل.

وتحاول الذاكرة دوما أن تغرس الصورة والموضوع في المشخص، وفي الغالب ما تروج لوهم الانتصار، كما هو الحال في حرب 1967حيث سوقت القومية العربية وهم الانتصار. ونقرب ذلك إلى الأذهان بسرد القول التالي:(الذاكرة هي أن جماعة معينة تتذكر ماضيها وتسعى لتعطيه تفسيرا ومعنى في الحاضر.) ل أنيت ويفيوركا Annette Wiviorka.

د ـ مميزات التاريخ:

يروم علم التاريخ الحقيقة، لأنها غاية في ذاتها، ووظيفته علمية تعليمية. وأما الذاكرة الاجتماعية فالحقيقة فيها وظيفية لا علمية، وكثيرا ما تتم التضحية بها خدمة لأهداف آنية كتمجيد الدولة الوطنية كما مر ذكره.

ويختص علم التاريخ الحق بالتجرد، وأما الذاكرة الاجتماعية فطابعها التحيز دائما، لأن غايتها بناء الهوية الجماعية، ورسم الحدود بين الجماعة وغيرها، حتى ولو كانت تلك الحدود مصطنعة أو وهمية. وحسبنا أن إسرائيل تزعم بأن مجالها من النيل إلى الفرات، وهو مجال وهمي من صنع الذاكرة.

ويقوم التاريخ بإرجاع المنسي، وكأنه يفعل ما يفعله علم النفس التحليلي بالذاكرة الفردية، حيث يستخلصها من اللاشعور. فالتاريخ علم اجتماعي والذاكرة مستقلة. وطالما يهدف التاريخ إلى احتضان حياة الذاكرة، ويعتمد عليها للتحقيق من الخبر. إنها مادة تاريخية. وبالمقابل لا تعتمد الذاكرة على التاريخ إطلاقا لأن علم التاريخ، يبحث عن أسباب الحدث، والذاكرة تقتصر على تفسير الحدث تفسيرا ذاتيا، يخدم أهدافا إيديولوجية معينة.

والتاريخ، بمعنى آخر، تدوين نزيه لوقائع الحياة البشرية، في سياق الزمان، وتحليل معناها ومغزاها في الحاضر والمستقبل. وأما الذاكرة الاجتماعية فهي (التذكر الانتقائي لوقائع التاريخ خدمة لغايات سياسية وإيديولوجية جماعية كما سلفت إليه الإشارة).

2- الذاكرة من خلال العارفين بها:

تتضح الذاكرة كمفهوم من خلال أدابيات المنظرين لها، حيث ولدت في أحضان السوسيولوجيا والأنثربولوجيا قبل انتقالها إلى التاريخ والسياسة.

أ- ذاكرة موريس هالبواكس:

من المفروض في الذاكرة، أن تكون فردية لعلاقتها بالحلم والخيال، وبالتذكر في أحسن الأحوال. ولقد سبق للفيلسوف الإغريقي أفلاطون أن جعل المعرفة تذكرا والجهل نسيانا. ومع مرور الزمان تبين أن للذاكرة مضمونا اجتماعيا وسياسيا وثقافيا فبات جائزا الحديث عن الذاكرة الجماعية. وحتى المعرفة ذاتها اتخذت بعدا سوسيولوجيا، فظهر ما يسمى سوسيولوجيا المعرفة. وقبل ذلك تحدث بعض علماء الاجتماع عن العقل الجمعي. ومع اتساع رقعة الحروب وتنوع أشكال الاحتلال، والحماية وتطور أساليب القهر واهتمام الفلسفة بالإنسان، وانقطاع التاريخ لدراسة المجتمعات بدل الأشخاص والأسر الحاكمة، ظهرت الذاكرة الجماعية كمفهوم. وكان أول من أثر في الأبحاث الحديثة حول الذاكرة عالم الاجتماع الفرنسي موريس هالبواكس، الذي اعتبر أن عملية التذكر الفردية، لا يمكن أن تتم إلا في إطار اجتماعي محدد. وفي كتابه « الإطارات الاجتماعية للذاكرة » Les cadres sociaux de la mémoire، بيان لعلاقة الذاكرة الفردية بوقائع المجتمع. ويعنينا أنه بالاستئناس بكتابات هالبواكس، يصح القياس بأن للقبائل المغربية في الأوساط المغلقة ذاكرة جماعية، يمكن الحفر فيها.

فمن جهة، تنشيء كل قبيلة نسقها الثقافي الذي يعد مرجعا محددا لهويتها الثقافية، وشخصيتها المعنوية، ومن جهة ثانية اعتادت بعض القبائل، ودأبت على تنظيم مناسبات للتذكر تمارس فيها الطقوس الاحتفالية، كالأعراس، والجنائز، وبعض

المواسم الزراعية، التي توافق في الغالب اليومية الفلاحية المغربية بالتقويم الجولياني.

فمن خلال الطقوس الاحتفالية، تنشط الذاكرة القبلية باحتفاظها على بعض الاستمرار الذي يميزها بالطبع عن علم التاريخ.

وتنبغي الإشارة، إلى أن النسق الثقافي بما هو مرجع الذاكرة الموحد، مستقل عن الذاكرة، ومنفصل عنها. فالنسق الثقافي نظام من العلاقات بين الفصول الثقافية المغلفة بالرمز، يقوم على الثبات، والنسقية، ويتنافى والدينامية، والسيرورة. والنسق الثقافي، يرجع إلى ماضي القبيلة البعيد. وأما الذاكرة، فتمتد في الماضي، شأنها شأن النسق الثقافي، لكنها تتصف بالدينامية، والاستمرارية، وطالما يعاد إنشاؤها، إن طالها النسيان. والاهتمام بالذاكرة كالاهتمام بالتاريخ ، وإن شئت فهي صناعة كغيرها من الصناعات، يمارسها الحاضرون، أثناء تذكرهم الماضي، فيصنعون بذلك التذكر مادة المؤرخ الأولى. والفرق بين التاريخ والذاكرة، أن التاريخ ينظر إلى المجتمع، والقبيلة، والدولة، ككيان قائم. والذاكرة تفترض وجود ذلك الكيان الذي يسمى المجتمع، أو القبيلة، أو الدولة. فحينما نتذكر حدثا ما، فإننا نستحضر وقائعه دون أسبابه أو مسبباته، وقل ما نتذكر نتائجه. نتذكر الحدث في علاقته بالقبيلة، أو الدولة، أو المجتمع، بحيث يستحوذ على تذكرنا عاطفة ما، حنين، شوق، أسف، كراهية، قرف، دوار، ندم.

وباختصار، فالذاكرة جملة من الأفكار، والرؤى والأحاسيس، المحفوظة من الماضي، يتشارك فيها، ويجمع عليها عادة، معظم أفراد مجتمع ما. وتعتبر هذه الذاكرة جزءاً

من عملية بناء المعنى، والعبر من الماضي. ويدخل عادة في بناء الذاكرة، عوامل عدة، منها التجربة، والدين، والطبقة الاجتماعية، بالإضافة إلى المكان، والثقافة لتتحول جملة هذه "الأحاسيس" إلى نوع من الإيمان، أو القيم، أو حتى التقاليد التي تصبح أحد أهم روابط الفرد مع المجتمع.

ولم يغفل هالبواكس، أن يربط في دراساته حول الذاكرة الجمعية الذكريات الشخصية للفرد بالمجتمع الذي ينتمي إليه، واعتبر أن الإطار الاجتماعي - والذي تُنشئه ثقافة مجتمع ما - يسهر على وضع نسق جمعي، يجعل الخبرات الفردية قابلة للتذكر وللتأويل.

ويؤسس هالبواكس نظريته على أساسين:

- الهوية الجماعية بماهي نتيجة للتفسير المشترك للماضي الخاص بتلك الجماعة.
- الفصل بين الذاكرة الجماعية، والجمعية. فالأولى تخص الوسط المتجانس والثانية الوسط اللامتجانس(1).

ب- ذاكرة بيير نورا:

يقول نورا:(كثر الحديث في عصرنا هذا حول الذاكرة الجمعية، وهذا مرده أصلا إلى غيابها المطلق، أي أنه لم يعد هنالك وجود لشيء يحمل هذا الاسم).

- استبدل نورا الذاكرة الجمعية بأماكن الذاكرة، التي تشمل (أمكنة جغرافية، وبنايات، وتماثيل، وأعمال فنية، وشخصيات تاريخية، وأيام تذكرية، ونصوص فلسفية، وعلمية، وأنشطة رمزية، وغيرها). فهناك ثلاثة شروط – وهي في الحقيقة أبعاد - لإضفاء صبغة "الذاكراتية" على مفهوم مجرد،

أو شيء حسي معين، البعد المادي والبعد الوظيفي، والبعد الرمزي[2]. فالبعد المادي لأماكن الذاكرة لا يجب أن يحيلنا إلى أن هذه الأماكن تقتصر على أشياء ملموسة، ذات طبيعة مادية فقط، كاللوحات الفنية، أو كتب، وغير ذلك، فهناك أحداث تاريخية حاسمة، أو دقائق صمت لإحياء ذكرى شخص ميت تتوفر أيضا على بعد مادي جلي، لأنها ـ كما يعتقد نورا ـ عبارة عن "مقطع مادي"محدد من فترات، ووحدات الزمن. ويتحتم على هذه الموضوعات، لكي تصل إلى مرتبة أماكن الذاكرة، أن تكون أيضا ذات بعد رمزي،أي حاملة لمعنى رمزي معين، وهذا يظهر بشكل جلي، مثلا، حينما تنتقل ممارسات، أو أفعال معينة إلى طقوس محاطة بهالة رمزية، فقط، أي بعد هذا "الارتقاء الرمزي"، تصبح هذه التموضوعات حاملة لنفس الطبيعة الحضارية التي تمتلكها أماكن الذاكرة في مجتمع ما. وأما البعد الوظيفي للذاكرة، فيتجلى في دور الذاكرة في المجتمع، وغايتها، التي تتمثل في الغالب في ضمان عدم تكرار ما جرى.

3-الذاكرة من منظور هيئة الإنصاف والمصالحة:

لقد ساهم عمل هيئة الإنصاف والمصالحة المغربية ،على إثارة موضوع الذاكرة في علاقتها بالانتهاكات الجسيمة لحقوق، في الحاضرة والبادية. ولأن معظم مواضع الانتهاكات الجسيمة لحقوق الإنسان مبثوثة بالوسط القروي، فإنه من الضروري الاعتراف للهيئة بإعادة الاعتبار للوسط القروي، لا في علاقته

بالذاكرة، بل لأن الهيئة أوصت بجبر الضرر الجماعي، في كل المناطق التي عانت من وقع السنوات الماضية.

- نقتطف من التقرير الختامي لهيئة الإنصاف والمصالحة المغربية، بعض العبارات، لنرى ما إذا كانت تتناسب ومفهوم الذاكرة كما بيناه سالفا. فـ(حفظ الذاكرة مكون رئيسي في مقاربة جبر الضرر الجماعي(ص98 من الكتاب الأول). وورد في خطاب الهيئة مفهوم الذاكرة الجماعية (ص108 من الكتاب الأول). وطالما ربطت الهيئة الذاكرة بالهوية المشتركة، باعتبارها مقوما من مقومات الأمة. وتهدف الذاكرة لدى الهيئة كشف الحقيقة وإقرارها، ولأن للذاكرة الجماعية ارتباطا وثيقا مع المصالحة فقد عملت الهيئة على توسيع دائرة المستفيدين من برنامج جبر الضرر الجماعي. وبذلك تكون الهيئة قد أعطت الذاكرة، وإن شئت المصالحة، بعدا اجتماعيا وثقافيا.

• وتوخت هيئة الإنصاف والمصالحة من مسار الكشف عن الحقيقة....الشعور بالمواطنة...والإسهام في النهوض بفهم المجتمع لأحداث الماضي (ص108من الكتاب الأول). وقامت بتنظيم سبع جلسات استماع عمومية من أجل استرجاع كرامة الضحايا ....وحفظ الذاكرة الجماعية (المرجع نفسه). كما عقدت لقاءات مفتوحة للتشاور...فيما يتعلق بالسبل الكفيلة بجبر الضرر الجماعي. ... وضمان مصالحة المواطنين مع مجالهم وتاريخهم في العديد من المدن والقرى المغربية (ص109من الكتاب الأول). ذلك أن الحفظ الإيجابي للذاكرة، يقضي المصالحة مع التاريخ. وتقضي هذه الأخيرة، إزالة العراقيل التي تحول دون البحث في هذا التاريخ (ص111من الكتاب الأول)، مما يستوجب مراجعة شاملة للأرشيف وخلق اهتمام

وطني لدى المعنيين بضرورة تنظيمه. وفي إطار برنامج تسوية مخلفات الاختفاء القسري، عملت الهيئة على بلورة مقاربة جديدة لحفظ الذاكرة، تستهدف اقتراح تحويل مراكز الاعتقال السابقة إلى مشاريع منتجة وحافظة للذاكرة (ص111من الكتاب الأول).

4- تأمل في منظور الهيئة حول الذاكرة:

لم تفلح هيئة الإنصاف والمصالحة، في تحديد كل النطاقات المتضررة من الانتهاكات الجسيمة لحقوق الإنسان، وتلوينها، وتمثيلها كارتوغرافيا. صحيح أنها لن تتمكن من قياس وقع المعاناة في نفوس الأفراد، أو على النطاقات السوسيومجالية، ولو ابتغت ذلك. صحيح أنها عالجت الملفات الفردية معالجة تحكيمية، تظهر في متن نسخها فصول من العدل وأصدرت أحكاما محددة لقيمة التعويض الفردي، وحددت ما إذا كان المتضرر مستحقا الإدماج الاجتماعي، أو التغطية الصحية. إنها باختصار أحكام منصفة قلما تعرضت للانتقاد. لكن الهيئة لم تفكر في التعامل مع المناطق الجغرافية المتضررة بنفس القياس الذي تعاملت به مع قضايا الأفراد. وبالمقابل لم تربط الهيئة الذاكرة بوحدات سوسيوثقافية متجانسة لإعطاء المصالحة بعدا اجتماعيا ثقافيا. فمن ذلك مثلا، لم تتضح حدود مجال الذاكرة في معتقل كرامة وبمحيط قصبات لكلاوي بالجنوب الشرقي المغربي. كما نظرت للذاكرة على أنها ذاكرة تاريخية في بعض الأحيان وعلى أنها تاريخ راهن في أحايين أخرى. وأغفلت الهيئة الفصل بين الذاكرة المعمارية المادية والذاكرة الرمزية الثقافية، فمحيط معتقل تزممارت غني بالرموز الثقافية التي

عاصرت المعتقل في أوج نشاطه. وبمعنى آخر، فالمعتقل ليس ذاكرة مادية، بل هو أيضا ذاكرة رمزية ثقافية في مجال جغرافي، يكاد أن يغطي الأطلس الكبير الشرقي، وأعالي ملوية.

وعلى الرغم من احتكاكها بالمجتمع المدني، في كثير من المناطق، واهتدائها في شهر شتنبر 2005 إلى تنظيم المنتدى الوطني حول جبر الضرر الجماعي، حضرته حوالي 200 جمعية، وتبينها من خلال التوصيات المستخلصة من أعمال الورشات ضرورة إعطاء البعد الجغرافي التنموي لجبر الضرر الجماعي، مع الحرص ألا يفقد جوانبه الرمزية، ووصايتها كذلك بالعمل على الحفظ الإيجابي للذاكرة، وإدماج النوع الاجتماعي ضمن مشاريع جبر الضرر المذكور. نقول، على الرغم من ذلك، لم تنظر إلى مواضع جبر الضرر الجماعي، بما هي وحدات سوسيوثقافية متجانسة أو مجالات لائقة للذاكرة.

لنسجل للهيئة أنها تعاملت مع ضحايا سنوات الرصاص والجمر بلباسهم الجغرافي، فخلصت إلى فرز مواطن، يشهد الكل بأن القرح قد مسها بالأمس القريب، وغشيها من النسيان ما غشيها، وانتظر المواطنون بها ما شاء لهم أن ينتظروا. ولنقل بدون تحفظ، إن الهيئة سليم قصدها، وعادلة القضايا التي عالجتها . ولنستشهد بأنها أبت أن تدرج ضمن خريطة الضرر الجماعي مواطن تنحدر منها ضحية واحدة، كشفت بالدليل والحجة عن معاناتها في سنوات الانتهاكات الجسيمة. وبمعنى آخر، فمواطن جبر الضرر الجماعي، التي اختارتها الهيئة كانت، ذات بعد جماعي، من حيث ذاكراتها، ومن حيث معاناة

النساء بها (النوع الاجتماعي)، ومن حيث – وهذا هو الأهم هنا- عدد الضحايا المنحدرين منها. وبموازاة ذلك، لم تفعل الهيئة ما فعله عيسى بن مريم لما، يطرق أبواب الناس بحثا عن المعاناة. فالهيئة، لا تقر بأن منطقة ما متضررة حتى يعبر سكانها، أو الجمعيات التنموية بها، عن معاناتهم في السنوات الماضية، وبعد ذلك تقوم الهيئة بالتحري الدقيق. ويعنينا أن خريطة جبر الضرر الجماعي من صنع المجتمع المدني، الذي تمكن من إقناع هيئة الإنصاف والمصالحة المشهود لها بالصرامةٍّ، والاستقلالية، والحياد. وبعبارة أدق، ففي الوقت الذي انقطع فيه المتضررون الأفراد لإعداد ملفاتهم، والبحث عن الحجج الكافية لإثبات ضررهم، طمعا في التعويض، والإدماج الاجتماعي، والتغطية الصحية، طفقت الجمعيات تعد مقترحات مشاريع، أملا في تحقيق ما يلي:

- تجسيد البعد المادي لبرنامج جبر الضرر الجماعي، باقتراح مشاريع تنموية اقتصادية واجتماعية.

- تحقيق البعد الرمزي في اعتراف الدولة بالأضرار المترتبة عن الانتهاكات من خلال تنظيم أنشطة للحفظ الإيجابي للذاكرة وإعادة الاعتبار لمراكز الاعتقال السرية.

ولا يجوز الاعتقاد، بأن برنامج جبر الضرر الجماعي نسخة طبق الأصل للبرامج التنموية. إنه «دعوة إلى تحرير الطاقات والمبادرات، ولا يجب بأي حال من الأحوال أن ينظر إليه كخدمات مكتملة ونهائية تمنح للساكنة» كما يقول السيد أحمد حرزني، رئيس المجلس الاستشاري لحقوق الإنسان. فالبرنامج، ليس كل شيء، لكن شأنه يقل وينقص، إن غشي جزءا قليلا من منطقة متجانسة تجانسا سوسيو اقتصاديا،

وسوسيو ثقافيا. وإذا كان من السهل تمثيل مواطن جبر الضرر الجماعي في بعده المادي تمثيلا كارتوغرافيا، فإنه من العسير تمثيل مواطن الذاكرة لارتباطها بالرمز، وبالأنساق الثقافية.

يقضي ضمان المصالحة مع المجال، والتاريخ، إشارة واضحة إلى الاهتمام بأماكن الذاكرة، ومقدمة للعناية بالتاريخ الشفاهي. لذلك دونت الهيئة جزءا كبيرا من مواد التاريخ الشفاهي، وقام المجلس الاستشاري لحقوق بتنسيق من صندوق الأمم المتحدة الإنمائي للمرأة، بجمع بعض الشهادات النسائية، وإصدارها في كتيب عنوانه، نساء كسرن جدار الصمت، وهو كتاب ذو صدى واسع في الأوساط الحقوقية. ومن جانب آخر، نظمت الهيئة الزيارات الميدانية لأماكن الذاكرة، مما وسع مجال الذاكرة لتشمل بعض الثقافات، كالدفن مثلا، بمقبرتي أكدز وتزممارت وأماكن أخرى. وبالمقابل لم تنظر الهيئة للذاكرة في أماكنها على أنها ذاكرة جمعية، لتعدد الخصوصيات الثقافية لمناطق جبر الضرر الجماعي، وتنوعها وتقاطعها (فاضمة وحرفو بين السونتات وأكدز).

ومما أهملته الهيئة، عدم التحديد الدقيق لخريطة أماكن جبر الضرر الجماعي، بما هي أماكن للذاكرة، يراعى فيها التجانس المجالي، والإثنوغرافي، والتاريخي. كما أن اعتماد التقطيع الإداري في التعاطي مع الذاكرة، غير مفيد لأنه لا يضمن التجانس الشفاهي، والتسيير الموحد لهذا الشأن. ونست الهيئة استحضار التمييز بين مجالين غير متجانسين للذاكرة، مجال المعتقل الداخلي، ومجاله الخارجي، مما يطرح إشكالا في الاشتغال بمجال الذاكرة. وكان أولى بها، أن تقوم

بالحفر الجيد في مفاهيم الذاكرة، وملاءمتها، والثقافة المغربية في بعدها المحلي والوطني .

5- أماكن الذاكرة بمنطقتي الرشيدية وميدلت:

تعددت أماكن الذاكرة وتنوعت بمنطقتي الرشيدية وميدلت، حسب تعبير بيير نورا. فهناك البنايات والقصبات، كبناية المعسكر الذي احتضن المعتقل السري بتزممارت، وبناية قيادة كرامة وقصبات قصر إكلميمن، وأكدال، والسونتات، وإملشيل، وإيبوخنان، وواحة سمكات.

ويمكن اعتبار مواطن القيادات التقليدية أماكن للذاكرة، لأن هذه القيادات، لما قامت به من اغتصاب للحقوق الفردية والجماعية، ساهمت في قمع كل تمرد في الحال، والمآل مما ضمن سرية المعتقلات غير النظامية التي استضافت معتقلي الرأي، وهنا يجب الاستشهاد بقيادات كراندو، بوذنيب، زاوية سيدي حمزة، الكرس.

ويجب أيضا استحضار الأنساق الثقافية للقبائل في الكونفيدراليتين أيت ياف المان، وأيت عطا، فهي مفيدة في إنشاء الذاكرة، لارتباطها بالهوية الثقافية المحلية، فوق أنها أماكن للذاكرة بتعبير بيير نورا.

- الأيام التذكارية والمواسم، هي بمثابة مجالات للذاكرة أو أماكنها حسب تعبير بيير نورا.
- المكتبات ومواطن الأرشيف.
- ثقافة الدفن والقبورية مفيدة في الذاكرة، ذلك أن إعادة الاعتبار للهالكين في المعتقل، يقضي دفنهم، أو إعادة دفنهم، وفق الطقوس الثقافية الجنائزية المحلية.

- النظم العرفية (الأعراف - الكونفدرالية القبلية- الرموز السحرية).
- المآثر التاريخية المتواجدة بالمنطقة أماكن للذاكرة يجب الاعتناء بها وترميمها.
- لا تزال الطوبونيميا تحافظ على الذاكرة من ذلك مثلا تزممارت والسونتات وأملاكو وإكلميمن.
- وللزوايا دورها في إنشاء ذاكرة المنطقة، لأن هذه المؤسسات الدينية، لا تلتزم الحياد في كثير من الأحيان. ففضلا عن احتضانها لأرشيف المنطقة، ساهمت الزوايا في نشر ثقافة الاستسلام والتمرد. تلك هي بعض القضايا الواجب الانتباه إليها، في كل عمل ذي علاقة بالذاكرة في إطار جبر الضرر الجماعي.

وفي إقليم الرشيدية (سابقا) خمسة مواقع لجبر الضرر الجماعي، إكليممن، كرامة، تزممارت، أملاكو، إملشيل. وكل هذه المواقع تزخر بخصوصيات سوسيوثقافية مما يجعل تناول الذاكرة فيها مجازفة صعبة العواقب. وضمن هذه المواقع تبدو إملشيل أكثرها تعقيدا لتعقد نسقها الثقافي والرمزي.

06 – الذاكرة بمنطقة إملشيل، قضايا وإشكاليات:

البحث عن الذاكرة بمنطقة إملشيل، لن يكون معصوما من الزيغ والانحراف. وبمعنى آخر، يصعب الإحاطة بما بقي من الذاكرة.

صحيح أن قبيلة أيت حديدو حافظت على نسقها الثقافي كاملا، وصحيح أن الذاكرة الحديديوية مستغنية في الحال عن النصب التذكارية، والمتاحف، بفعل غزارة الشعر الأمازيغي،

المخزون في الذاكرة الفردية، لكثير من الأشخاص، لكن التقاط هذه الأشعار، يشبه التقاط الدرر النادرة. وعلى الرغم من قوة الشعر وسعته لاستيعاب حاجات الذاكرة، فإن المواقع الجبلية أضحت في مستوى النصب التذكارية، لحضورها في ذاكرة قبيلة أيت حديدو. إنها بمعنى آخر، مواقع لحفظ الذاكرة. كلنا يتذكر قبيلة أيت حديدو، ويتذكر معها مواضع أيت يعقوب، ومصضريد، وتيرغيست، وباب نواياد، لأن هذه المواضع الجبلية، شهدت معارك ساخنة، بين جيوش الاستعمار الفرنسي والمقاومين من القبيلة المذكورة.

وكلنا يتذكر مع قبيلة أيت حديدو، ومع الشعب المغربي مواضع، إملشيل، والسونتات، وبوزمو، وأكدال، لأنها عرفت انتهاكات جسيمة لحقوق الإنسان، ابتداء من مارس 1973. وارتباطا بذلك، فإن في الأماكن المذكورة استحضارا لأشخاص صنعوا الحدث، أو هم ضحايا الحدث. فمن بين هؤلاء، علي أوحمايو، وسيدي بن أحماد، أثناء مقاومة الاستعمار، وفاضمة وحرفو، وسعيد أوخويا، وموحى أوحرفو، وزايد أوعبود، ضمن أحداث 1973.

فالعلاقة بين المكان والشخص، أو قل بين المكان والحدث، تساهم في رسم خريطة صماء خالية من الوقائع الاجتماعية، ومن الرموز، والعادات، التي عايشت الحدث واستمرت للآن.

ماذا بقي من ذاكرة أيت حديدو؟ وماذا يمكن إنشاؤه؟

بقي موسمي إملشيل وبحيرة تيزليت، والنصب التذكارية الجبلية، والمضامين المفيدة للذاكرة في الشعر الأمازيغي،

والتراث الشفاهي، والتقاليد الشفاهية. ولا تزال مغارة أخيام شاهدة على ذاكرة المنطقة نشأتها وتجديدها، ولا تزال تلك المغارة مزارا طبيعيا للتبرك. ويمكن ملامسة الذاكرة أيضا في الأزياء، والأعراس، والطقوس، الجنائزية، والمقابر، والمعمار، ويمكن إنشاء ذاكرة أيت حديدو على مستوى الوقائع، وعلى مستوى الثقافة. ويسهل جمع كل الأشعار المرتبطة بالجبل لبناء صور من الشعر لإنشاء نصب تذكارية جبلية رمزية، صور يختلط فيها خيال الشاعر بوقائع تاريخية.

والحديث عن الذاكرة في بعدها الرمزي لا يستقيم حتى يتناسب ومجال تحرك قبيلة أيت حديدو. ولأن القبيلة تنتمي إلى صنهاجة، فإن مجال ذاكرة إملشيل لم يتسع ليغطي، على الأقل، كل الجنوب الشرقي المغربي. ولا يعني ذلك، أننا سنقوم بمسح كامل لكل النطاق الجغرافي المذكور، بل نستشهد بالأحداث التي شاركت فيها قبيلة أيت حديدو خارج مجالها الوظيفي. ومن المفيد التطرق أيضا إلى بعض النماذج، على سبيل المقارنة، كالإشارة إلى قبيلة أيت عطا لدفاعها، كما هو حال أيت حديدو، عن الجبل، والاعتزاز بالقمم. ولأن المراد من هذا العمل المتواضع للغاية، السعي إلى إنقاد الذاكرة في وسط تسود فيه الشفاهية، من النسيان. ولأن الذاكرة ملك للقبيلة، أو لجماعة معينة، والتاريخ ليس ملكا لأحد، فقد ارتات جمعية أخيام أن تنظم نشاطا يقضي عرض مسودة هذا الكتاب للنقاش، قبل

نشرها يوم 03 أبريل 2010. لذا وجب عرض تفاصيل النشاط التي نعتبرها محاكمة قاسية للكتاب. ونظن أنه بعرض الانتقادات الموجهة لمسودته نكون قد حققنا هدفين:

- الهدف الأول ويكمن في تصحيح بعض المضامين، وإدراج بعض النواقص وتعميق الرؤية في بعض المواقف.

- الهدف الثاني ويتجلى في إدراج الانتقادات. وبذلك يكون كاتبا هذا الكتاب قد اعتذرا لأولئك الأشخاص المعنويين المستشارين الجماعيين، وممثلي الجمعيات التنموية، وأعيان عشائر أيت حديدو، الذين تعذرت الاستجابة لمطالبهم في هذا الكتاب. وبموازاة ذلك فالشكر الجزيل لكل المساهمين في نجاح هذا العمل. وأما نشاط تقديم الكتاب فقد تم مساء يوم السبت 03 أبريل 2010 بقصر(دوار) أكدال[03]. من خلاصاته:

- العمل على إظهار قيم حقوق الإنسان في التراث الشفاهي لقبيلة أيت حديدو.

- إغفال ذكر المقاومين بمنطقة أوتربات (في الجزء الأول من الكتاب).

- تخصيص الجزء الثاني من الكتاب لمنطقة أوتربات، وغيرها من المناطق.

- العمل على تدوين كل تراث منطقة إملشيل.

- لم يفصل الكتاب الكلام كثيرا في معركة أيت يعقوب.

- دعوة سكان أيت حديدو إلى الانخراط في تدوين الذاكرة.

- إدراج الملاحظات الواردة في النقاش في متن الكتاب.
- توسيع مشروع الذاكرة الجماعية، وتعميقه ليستجيب لرغبات سكان أيت حديدو.
- مواصلة جمع الذاكرة الشفاهية بالمنطقة. وفيما يلي المداخلتان:

مداخلة لحسن أيت الفقيه:

(أفضل أن أتحدث بالأمازيغية وإن كان هناك من لا يفهمها إطلاقا فسأكون مزدوج اللغة في إلقائي هذه المداخلة ليعم الفهم.

[الكلام المترجم من الأمازيغية]: لقد قمنا بشق طريق وعرة في سفرنا لوصولكم معشر قبيلة أيت حديدو الأعزاء، وأخص منكم سكان قصر أكدال، ومنخرطي جمعية أخيام العزيزة.

يجب التذكير في البداية، بأننا لن نقوم بقراءة في كتاب «إملشيل، الذاكرة الجماعية»، كما هو مسطر في البرنامج، ولكننا سنقدم الكتاب المذكور، ولما ننته من تصحيحه وطبعه سننظم لقاء أو لقاءات لقراءته.

ألفنا هذا الكتاب، أنا والسيد باسو أوجبور الجالس بجانبي، وهو ابن منطقتكم. وأقر أننا اشتغلنا في الموضوع كثيرا وعمقنا التفكير فيه، ولا نزال نفكر فيه باستمرار إلى أن يخرج إلى الوجود.

موضوع الكتاب «إملشيل، الذاكرة الجماعية» يتناول أساسا الذاكرة بمنطقة إملشيل، والذاكرة والتاريخ (تيمكتيت ذ

تمزرويت) بالأمازيغية، موضوعان لا يلتقيان أحيانا، ولكننا ربطنا بينهما تعسفا. فالذاكرة والتاريخ، يسلك كلاهما طريقا خاصا به. فالتاريخ لا يستقيم بدون ذكر أسباب الحدث، وظروفه، وملابساته، ونتائجه، وتأثيره على أحداث أخرى. ويدعم التاريخ مضامينه أساسا بالوثائق. ولما تنعدم الوثيقة ينعدم التاريخ. والذاكرة لا تحتاج إلى النبش الكثير في مواطنها، فهي تهدف إلى استخلاص ما تحمله ذاكرات أفراد جماعة معينة، حول الحدث والمكان والأشخاص. فالذاكرة، في أصلها، ذاكرة فردية، لكنها شكلت أساسا للذاكرة الجماعية بعد الحرب العالمية الأولى، ومع العالم الاجتماعي الفرنسي موريس هالبواكس.

يبدأ إنشاء الذاكرة الجماعية بجمع تمثل سكان منطقة ما، حول حدث ما، وما استصحبه ذلك الحدث من معاناة، وتمثلهم حول المكان، وما يذكره للناس من أحداث.

لماذا تدوين الذاكرة ؟

ندون الذاكرة لكي لا يطولها النسيان. وحسبنا أن التدوين بمنطقة إملشيل يكاد أن ينعدم.

ماذا يمكن أن ننشئه من ذاكرة أيت حديدو ؟

يمكن أن ندون ذاكرة تعود إلى أواخر القرن التاسع عشر، ونتشئها. وتكمن فصول تلك الذاكرة في الشفاهية وضمنها الشعر الأمازيغي. وإذا أردنا أن نوسع المجال فإننا سنلجأ إلى الاستئناس بالتقارير الفرنسية، لكن بنوع من الحذر. ولن نخفي عليكم أننا لما انخرطنا في عمل إحياء ذاكرة إملشيل وحفظها وجدنا أنفسنا كأننا نبحث عن الجواهر المفقودة. ونريد أن نشكر الذين دعمونا بإرشاداتهم مثل السيد احساين أوالعزيز، المستشار الجماعي بجماعة إملشيل، الذي حضر معنا في هذا اللقاء وغيره. لقد تأخرنا كثيرا في عملنا لصعوبة الموضوع. ولن نخفي عليكم، بأن هذا العمل هو الأول من نوعه في المنطقة إن لم نقل في المغرب. وأريد أن أشرع في الحديث باللغة العربية لأرضي من حضر معنا من الناطقين بهذه اللغة، وسأعود ثانية إلى الأمازيغية. أصرح للذين لا يفهمون الأمازيغية جيدا، بأن هذا الكتاب أول دراسة باللغة العربية، تتناول الذاكرة في إطار برنامج جبر الضرر الجماعي، لذلك فالضرورة تقتضي مناقشة الذاكرة كمفهوم ظهر في حقل العلوم الاجتماعية مع موريس هالبواكس سنة 1925، وفي السبعينات من القرن الماضي شرعت بعض الدول في تدوين التراث الشفهي، وبالأخص التاريخ الشفاهي. وأما انطلاق الذاكرة كصناعة فإن تدوينها

نشط ابتداء من الثمانينات من القرن الماضي، ولا يزال هذا العمل بكرا. ومن حسن حظنا أن شرعنا ندون الذاكرة الجماعية في منطقة إملشيل، وهي منطقة خصبة لمحافظتها على منظومتها الثقافية، ولاعتمادها الشفاهية. فالصعوبة تكمن في جمع الأشعار والرواية الشفوية. ولقد قام السيد باسو أوجبور بعمل جبار، حيث جمع الكثير من الأشعار التي تدور حول مقاومة قبيلة أيت حديدو للمستعمر الفرنسي، وقد نجح في جمع أشعار تعود إلى القرن التاسع عشر، وتلك شهادة أدلي بها للتاريخ. وأصرح لكم، أن ما يمكن أن ننجزه في الموضوع، لا يتجاوز 01 في المئة من ذاكرة المنطقة، وإني أرى ذاكرة إملشيل عملا موسوعيا، ولا يمكن لشخصين (لحسن أيت الفقيه وباسو أوجبور) أن ينجزا هذا العمل كله. وفوق ذلك، فمشروع جمعية أخيام، مركز التوثيق فاضمة وحرفو، الذي يشتمل على فصل واحد يتعلق بتدوين الذاكرة، لن يطيق طبع كتاب يفوق عدد صفحاته مئة. وأذكركم بمشروع أنجزه اتحاد كتاب المغرب فرع الرشيدية حول الذاكرة الشفاهية بمنطقة تافيلالت، ساهمت فيه رفقة السيد باسو وجبور، وأشرفت على إنجاز أحد أجزائه الثلاثة، وقد خصصنا حيزا لمنطقة إملشيل، لكن ذلك غير كاف.

وأما مناسبة هذا العمل فتعود إلى الأحداث الماضية التي استصحبت معها الانتهاكات الجسيمة لحقوق الإنسان، والتي تعود إلى سنة 1973. فإذا أردنا قراءة الحدث من حيث الذاكرة، نجد أولا، أن منطقة أيت حديدو، هي المنطقة الوحيدة التي تأخر احتلالها من لدن الجيوش الفرنسية، إلى جانب منطقة بوكافر، لكي لا نخطيء في التأريخ. [الشروع في الحديث بالأمازيغية]. وتعود مقاومة أيت حديدو للمستعمر الفرنسي إلى ما قبل 1912، حيث شاركت القبيلة في معركة بوذنيب الشهيرة التي وقعت سنة 1908، وشاركت في معارك أخرى خارج مجالها الجغرافي، كمعركة بادو، وتزكزاوت، والبعض ينفي مشاركتهم، والبعض يؤكدها، وسأعطي الكلمة للسيد باسو وجبور ليوضح لنا هذه النقطة، خصوصا وأني سمعت البعض من سكان قبيلة أيت يحيى، يؤكدون مشاركة أيت حديدو في هذه المعركة. وقد شاركت كذلك في معارك داخل مجالها الترابي، أيت يعقوب، أزغار إيرس، باب نواياد، تيسكت ن تمادا، مصطريد، أنفكو. وإذا تمعنا في شجاعة قبيلة أيت حديدو، ومقاومتها، نجد أن لذلك مرجعا في قيمها، وتقاليدها، وثقافتها (الأزياء، الشعر...) ونظمها العرفية. لن نفهم ما جرى دون الرجوع إلى ثقافة هذه القبيلة.لذا يجب النظر إلى الحدث في

شموليته ولعلاقته بالنسق الثقافي للقبيلة. وآنذاك سنفهم لماذا تأخر احتلال منطقة أيت حديدو. وإن لتلك القيم كذلك ارتباطا بأحداث 1973. لنعمل إذن على تدوين هذه الذاكرة لأجل تخليدها، ولأجل نشر مضامينها في نطاق واسع. وكما قلت لكم قبل قليل فالذاكرة تختلف عن التاريخ. فالذاكرة ليست سوى ما تحملونه أنتم أنفسكم وما رواه لكم آباؤكم وأجدادكم. فالمؤرخ يوظف الذاكرة ويستخلص منها المادة التاريخية. ولقد تعمدنا أن نطلق على الكتاب الذاكرة الجماعية، لأن بعض النصوص الشعرية، هي بمثابة مصادر تاريخية، لا تزال الذاكرة الشفاهية تحافظ عليها، لما تشتمل عليه من أوصاف للمكان والحدث والأبطال، مثل الأوصاف الواردة عن المدعو أوحمايو في بعض الأشعار.

سأنتقل الآن إلى إلقاء نظرة عن الكتاب.

أذكر أن هذا الكتاب هو الأول من نوعه للآن، في المنطقة. فمن فصوله :

- مقدمة.
- إشكالية الذاكرة في مواطن جبر الضرر الجماعي.
- الأسس الثقافية للمقاومة في الأوساط القبلية المغلقة، (أيت حديدو بمنطقة إملشيل نموذجا).

- مقاومة قبيلة أيت حديدو من خلال الشعر الأمازيغي.

- المقاومة لدى أيت حديدو مقاربة الإشكالية.

- السونتات بين حسن الطبيعة وبؤس الذاكرة.

- أعلام التصوف، والمقاومة، والفن، من قبيلة أيت حديدو.

وسأعطي الكلمة للسيد باسو أوجبور، ليقف عند ما غفلت عن ذكره.)

مداخلة باسو أوجبور

(شكرا السيد لحسن أيت الفقيه. أسجل بصدد الكتاب الذي ألفناه «إملشيل الذاكرة الجماعية» والذي نحن بصدد مراجعته، أنه من السهل بمكان كتابة الخواطر والسيرة الذاتية، ومن الصعب كتابة الذاكرة والتاريخ. فأثناء كتابة المواقف الذاتية يحق للكاتب أن يقول ما يشاء ويدون ما يريد، لأنه مستقل في رأيه وفي ما يدعيه. وأما كتابة التاريخ وإن شئتم الكتابة التي تعني جماعة معينة كالأنثروبولوجيا، والسوسيولوجيا، فإن للخطأ فيها وقعا سيئا.

تمنينا لو عاد المؤرخ الإغريقي هيرودوت إلى الحياة، ونهض من قبره، وقدم إلى قبيلة أيت حديدو، ليكتب تاريخها بكل دقة وموضوعية.

ولما غاب من يقوم بهذا العمل تطوعنا لتدوين بعض الفصول عن ذاكرة أيت حديدو وتاريخهم، عملا بالمثل الأمازيغي «Tenna day taddun tuf tenna iqqiman» معناه «التي تسير خير بكثير من الواقفة في مكانها». أفضل أن نكتب شيئا عن ذاكرة هذه القبيلة، وأرى أن ذلك خير من الانتظار بعض الوقت، إلى

حين مضي ثلاثة أجيال، ونجد معظم الذين يتذكرون شيئا عن المقاومة قد قضوا نحبهم. لقد قمنا بمجهود جبار وحاولنا التزام الحياد. وإنكم تعلمون أن التزام الحياد أمر صعب للغاية. إننا لن ننتظر من ينزل من السماء، وينظر إلى القبيلة بعين المحايد. قد يتأثر الكاتب بانتمائه القبلي أو بتحيزه لقبيلة أو عشيرة ما أو بيئة ما. لا أخفي عليكم بأنني جاهدت نفسي وكابدتها لكي لا أذكر عشيرة أيت جبور التي أنحدر منها. لقد قتل منهم الكثير في معارك المقاومة ومنهم باسو أوجبور « باجبور » الذي قتل بـ «أقا ن إرغيس » قرب قرية أقديم، وكذلك زايد وجبور الذي أصيب في كتفه. وإني لم أذكرهم خوفا من انتهاك الحياد. لقد جمعنا كل النصوص الشعرية التي تتحدث عن بعض قيم أيت حديدو كالصلابة في الرأي، والموقف، والشجاعة، والعفة.

حينما نقول أيت حديدو، فإننا نقصد بهم (أيت حد، إيدو)، أي الذي انتهك الحد يطرد من المنطقة، ويخرج منها عنوة. لقد اشتهرنا نحن قبيلة أيت حديدو بالحرب والسلم. نمارس الحرب دفاعا عن أنفسنا، وقل ما نفضل الهجوم كخير وسيلة للدفاع. وأذكركم بأننا لن نؤرخ لتاريخ أيت حديدو القديم، بل سنركز على مقاومتهم وثقافة المقاومة لديهم أعني ذاكرتهم الجماعية. فقد شاركوا في معارك شريفة خالية من أية مرجعية سياسية، ومليئة بالقيم والمواقف النبيلة. سأذكركم باعتراضهم سبيل الخائنين (الخونة) وقتلهم، ولن أذكر أسماءهم في هذه المناسبة. وكلنا يعلم بأن قبيلة أيت حديدو اعترضت سبيل الكلاوي (أكلاوو)، وطردته من منطقة تينغير، ومنعته من دخول جبال الأطلس الكبير الشرقي. إنهم يقاتلون على شكل وحدات التدخل

السريع. ولا غرو، فمفهوم (أيت حد إيدو) معناه الذي بلغ في زحفه حدود مجالهم الوظيفي يتلقى مواجهة عنيفة.

يظهر أفراد قبيلة أيت حديدو في شكل جنود مجندين للدفاع عن مجالهم. تراهم عساكر في زيهم. وأريد أن أعقب على مداخلة السيدة فتيحة بنزكري (حضرت النشاط الذي نظمته جمعية أخيام) لما انتقدت انقطاع نساء قبيلة أيت حديدو للعمل في الحقول. وأقول بأن العساكر يشغلون النساء في الحقول وينقطعون للدفاع عن المجال الوظيفي، إنهم متأهبون للحرب باستمرار. ونجد السلوك الحربي لدى أيت حديدو كامنا في ثقافتهم فهم يرفضون المعاق، ولا يقبلون الإعاقة في مجتمعهم، فإن وجد معاق بينهم ينعتونه بصفته، فهذا أبكم وذاك أعرج، وتلك عوراء أو بكماء. فالقبيلة ترفض الشلل وتفضل مجتمعا سليم البدن. وتلك أدلة ملموسة على أن القبيلة حربية، ترفض الإعاقة، والإهانة، والخوف، والذل، وتمجد الشجاعة، والقوة والبسالة. وكيفما كان الأمر، فإننا نعتز نحن قبيلة أيت حديدو بأننا، لم يحدث أن اعتدينا على الغير، وأخرجنا أناسا من ديارهم. ترانا نأكل خبزا يدعى « باحمو »، وهو خبز يحوي في داخله حجرا صلبا. فالجندي من قبيلة أيت حديدو، يقاوم بقليل من الطعام، فكمية من الدقيق تكفي لتهييء خبز باحمو. ويعد خبز باحمو وليد الحرب. ففي ذات يوم حضر الجنود القبليون لتهييء خبز « أبادير »، لكن الوقت لم يمكنهم من الانتظار، فأخذ كل واحد منهم قطعة من العجين وحشا فيها حجرة(جمرة) ساخنة، وانطلق الكل للمشاركة في المعركة.لاوبالمفعول الحراري لتلك الجمرات الحجرية تم طهي خبز باحمو.

وجوابا على سؤال السيد لحسن أيت الفقيه، حول ما إذا كان سكان أيت حديدو قد شاركوا في معركة تزكزاوت، ضد المستعمر الفرنسي،أصرح، أن قبيلة أيت حديدو لم تشارك في تلك المعركة. فالذين شاركوا فيها يمثلون أنفسهم، ولا يمثلون القبيلة. فالقبيلة رفضت المشاركة في تلك المعركة، لأنها مدعمة من لدن الزاوية الدلائية (أيت اسحاق). ومعلوم عن الزاوية الدلائية، أنها تبتغي ممارسة السلطة. وأما قبيلة أيت حديدو، فترفض توظيف الدين في السياسة، ولا يعني ذلك أن قبيلة أيت حديدو ترفض المتصوفة والتصوف. فالكرماء (إكرامن) القاطنين بين ظهرانيها (أيت سيدي، وأيت رزقي)، هم كرماء السلوك (التصوف السلوكي)، والقيم التي يتبنونها قيم أمازيغية. فـ (تيكورما)، أي التصوف بالأمازيغية، كان تصوفا سلوكيا، قبل أن ينتقل إلى التصوف الفلسفي، والتصوف الطرقي. ولكي يكون الإنسان مريدا متصوفا (أكرام)، عليه أن يحرم نفسه من اللذات بشتى أنواعها. فالمتصوف السلوكي بقبيلة أيت حديدو، لن يكون كذلك، حتى يلتزم الحياد السلوكي، وآنذاك يسمح له باستغلال الأرض، وبزواج إحدى بنات أيت حديدو. فالزواج لدى أيت حديدو، يقوم على أسس ثقافية معينة، تتناسب والمجتمع المغلق. فلا يسمح بالزواج اللاعشائري في قبيلة أيت حديدو، إلا في حال استيعاب كل النسق الثقافي للقبيلة، وتبنيه. أريد أن أتصفح الكتاب، وليسمح لي السيد لحسن أيت الفقيه بذلك، لقد تعمدنا إدراج بعض المعجزات المرتبطة بالتصوف السلوكي (تيكورما)، لنبين أن قيم قبيلة أيت حديدو، لا تتنافى وقيم التصوف المحايد. وسأعرض عليكم سير المقاومين وأهم المعارك، سأنقلها لكم من متن الكتاب . (انظر الفصل الخاص

بسير المقاومين). وبصدد الأغاني المضمنة في متن الكتاب فهي تتضمن من السخرية ما يجعل الناظر فيها يحس بإلحاد قائلها.

تقول تعبابوت، لما تأثرت بمصاحبة المتصوفة للمقاتلين وإكثارهم من أذكار وأدعية. وعلى الرغم من ذلك انهزم المقاتلون من قبيلة أيت حديدو أمام جيوش المستعمر :

Taggudit ay -amxilaf
Nna imxalaf sidi rabbi
D nnabi
Lig dgan abrid I baxxu
A dagh is-tvuw am lbaz g tizza

معناه:

كثر الخلاف بين الله والنبي
لما فتحا الطريق أمام (بخو)الوحش
لكي يطردنا في الفجاج

وقال شاعر آخر من قبيلة أيت كرهور(نبا) :

Mar itwit nnabi am ti dilligh
Ggudgh ad salahn ad is ibdu tada

معناه:

لو ضرب النبي بمثل هذه (يقصد المعارك والرصاص)
أخشى أن يعقد الصلح(يعني مع الروميين)
لقسمة(تاظا) المحمية.

وقالت تعبابوت واصفة المدعو الزكني لما قصفت الطائرة المنطقة لكنها لم تصب الهدف :

Annigh Zganni g imi
N yat tafrit
Tedda ttayyara nnigas
Ar serraftiln.

معناه:

رأيت الزكني أمام مدخل أحد الكهوف
مرت الطائرة فوقه وبدأ يتعثر في سيره.
وأجابها :

Ima cm id izazlan
Ata ch ammin
Id at tazdamt
Mad is inwa watil.

ەانعم:
وكذلك أنت تجرين
فهل تبتغين جمع الحطب.
أم تسرعين لقطف العنف

وقبل أن أعرض لكم أسماء المقاومين، التي أدرجناها في ملاحق الكتاب أعتذر للذين لم نتمكن من ذكرهم لغياب المعلومات (انظر ملاحق الكتاب).

الهوامش:
01-للمزيد من التفاصيل راجع:

Maurice HALBWACHS , **LES CADRES SOCIAUX DE LA MÉMOIRE.** Un document produit en version numérique par Jean-Marie Tremblay,professeur de sociologie au Cégep de Chicoutimi Courriel: jmt_sociologue@videotron.ca Site web: http://pages.infinit.net/sociojmt Dans le cadre de la collection: "Les classiques des sciences sociales"Site web: http://www.uqac.uquebec.ca/zone30/Classiques_des_sciences_sociales/index.htmlUne collection développée en collaboration avec la Bibliothèque Paul-Émile-Boulet de l'Université du Québec à Chicoutimi Site web: http://bibliotheque.uqac.uquebec.ca/index.htm

02- للمزيد من التفاصيل راجع:

Histoire et mémoire *par Laurent WIRTH, IGEN*
.***http://www.acreims.fr/datice/bul_acad/hist-geo/bul26/wirth.htm***

03- من المفيد إدراج المداخلتين المقدمتين في النشاط المذكور في المتن أعلاه.

الأسس الثقافية للمقاومة في الأوساط القبلية المغلقة.

* أيت حديدو بمنطقة إملشيل نموذجا *(01)

يختلف عنف المقاومة القبلية المغربية، من منطقة إلى أخرى، ويعود ذلك إلى الاختلاف في المكونات السوسيوثقافية للعشائر، والقبائل. ويتناسب عنف المقاومة وتماسك النسق الثقافي، الذي يغذي الثبات، والصمود. وباختصار، ففي القيم بذور المقاومة. وبمعنى آخر، لا فرق بين المقاومة المستمدة من التشبع بالثقافة السياسية، أو بالأحرى، الثقافة العالمة، وبين الدفاع الذاتي القائم على المرجعية الثقافية بالمفهوم الأنثروبولوجي. وفوق ذلك، لا فرق بين القبيلة والزاوية والحزب السياسي، إذا تعلق الأمر بالدفاع عن المجال الوظيفي أو المجال الإيديولوجي أو الوطن. نخلص من هذا لنشير إلى أنه لا يمكن ملامسة طبيعة العلاقة بين الإنسان، والأرض بدون جسر القيم.

1- المقاومة وقيم الانغلاق

تسود قيم الانغلاق في كل الأوساط الاجتماعية الكائنة جنوب البحر الأبيض المتوسط وغرب واد النيل. ومرد ذلك، إلى كون هذه المجتمعات عرضة للغزوات المتكررة، وفي جبال الأطلس التي لم تتأثر كثيرا بالتحولات القروية يلمس الانغلاق واضحا في الزي والمعمار، وأساليب التعامل وطرق التواصل، ففي الزي أشرطة سوداء ترمز إلى الانغلاق، وإلى الأصل الصحراوي للقبيلة، وأشرطة رمادية يدل سمكها على الخصوصيات العشائرية داخل نطاق قبلي معين، وهي ترمز

إلى الخوف في الغالب، وأشرطة خضراء تعبر عن خصوبة الأرض الزراعية ،والمراعي والنساء. وأما الأشرطة الصفراء، والبنية، فتدل على حب الأرض، والتعلق بها. والعلاقة بين الإنسان والأرض، علاقة دموية قائمة على الصراع والدفاع، لذلك، فلا غرابة في وجود أشرطة حمراء في الأزياء توحي بالمقاومة الذاتية AUTO DEFENSE. ومن بين الأزياء الحاملة لرموز المقاومة، زي أيت حديدو، زي أيت مرغاد، زي أيت عطا، زي أيت سغروشن، زي أيت يحيى. ونود أن نسجل، أن كل القبائل التي تطوعت لحراسة الطريق التجارية سجلماسة فاس، أو مرت بمنعطفات تاريخية، أثرت على استقلالها، تحمل زيا أبيض، يرمز إلى الانفتاح. نلمس ذلك عند أيت يزدك، وأيت عياش، وأيت مكيلد، وبني مطير، وقل ما تقاوم هذه القبائل الغرباء. وأما القبائل التي تحمل في أزياء نسائها أشرطة حمراء، فترى أن الهجوم خير وسيلة للدفاع. والمرأة هي التي تحمل القيم القبلية في زيها.

وللتوضيح أكثر، لم تنخرط قبائل أيت يزدك في مقاومة المستعمر، لأنها تفضل المشاركة في الهجوم على القبائل التي لم تخضع للاستعمار لاحتلالها، ولأن انقطاعها لحراسة الطريق التجارية سجلماسة فاس، جعلها تلهث دوما وراء الغنائم، أو بالأحرى، الاقتصاد النقدي. لذلك وظفها المستعمر أحسن توظيف، لاستعمار الأطلس الكبير الشرقي، والتحكم فيه بقيادة عدي أوبيهي. وبالمقابل سجلت مقاومة عنيفة بالأطلس الصغير بقيادة عسو أو باسلام، وبأعالي واد غريس بمساهمة أيت مرغاد، وبأعالي زيز بفضل صمود أيت حديدو.

وإلى جانب الزي، يعبر المعمار عن مستوى الانفتاح والانغلاق. ففي الأوساط الأكثر تقوقعا، تتموضع معظم القرى في مواضع دفاعية، إفريز صخري أو طيني، تل صخري، سفح جبلي شديد الانحدار. وتحيط بهذه القرى أسوار، وتتخللها أبراج ،تتوجها شبكة من الثقب توظف في الرصد، وقد تستغلها أفواه المدافع، إن أريد إطلاق النار على العدو. تكثر فيها الكلاب الضالة، وتنعدم النوافذ في جدرانها. وفي النسيج المعماري للقرية، غياب شبه مطلق لرحاب التشميس. أما القرى الأكثر انفتاحا، قرى أيت يزدك، على سبيل المثال، فتتموضع في أماكن منبسطة، بحوض زيز، أيت موسى أوعلي، تيغرماتين، كراندو، تليشت، أيت خوجمان، أيت وليل. وتعتمد في دفاعها على الخنادق التي تملأ ماء، وعلى الأبراج التي توظف كثيرا في الرصد، لذلك فهي قليلة الثقب. ولما كانت هذه القرى تعتمد على استراتيجية الهجوم فإنها تعتمد على الفرسان، وعلى التفاوض المستمر مع المحيط المجاور وإن اقتضى الحال مع السلطة المركزية، لذلك نجدها حاضرة بكثرة في الوثائق التاريخية الرسمية.

2- المقاومة لدى أيت حديدو: مقاربة سوسيومجالية :

إن النظر في التوسيع العشائري في القرى الزراعية، والدفاعية، بأسيف ملول، وواد إسلاتن، أحد روافد زيز، يلمس بوضوح الحس الدفاعي القوي لدى أيت حديدو. ومن المفيد تقديم مسح عام لكلا الرافدين، لأننا نظن أنه يكفي لتقريب الاستراتيجية الدفاعية لدى أيت حديدو، التي يتداخل فيها العنصر البشري بالعنصر الطبوغرافي.

أ- أسيف ملول :

يتكون حوض أسيف ملول من رافدين، تعمرهما عشائر أيت حديدو، واد تلمي، وواد أسيف ملول، وروافد أخرى قليلة الصبيب، خالية من العمران، واد السونتات، أزيلال نتفغولت، واد تين كاكو. تتموضع عشائر أيت إبراهيم في أعلى المجريين، أسيف ملول، وتلمي، وتنتشر قرى أيت يعزة في أسفلهما. أما عشائر ملوانة، فموزعة بالتساوي، على القبيلتين أيت إبراهيم وأيت يعزة. ولا نستطيع تقديم تفسير يكشف عن سبب اختيار أيت يعزة لأسفل المجرى المائي. ويغلب على الظن، أن لذلك ارتباطا بالعوامل السوسيوثقافية، فأيت يعزة تحمل زيا تتخلله أشرطة بيضاء، ترمز إلى استعداد القبيلة للنزوح نحو الانفتاح. لذلك فهي مدعوة للدفاع عن الحدود الشمالية والغربية للمجال الوظيفي، أو بالأحرى، التفاوض مع أيت سخمان صاحبة الزي الأبيض. إن تثبيت الأشرطة البيضاء في زي أيت عزة، يحمل دلالة التعايش، والتواصل الثقافي، مع قبائل المحيط المجاور. ولا غرو، فهي التي تحرس الفجاج الاستراتيجية بين أيت حديدو، وأيت سخمان، وهي على سبيل الحصر، خانق أسيف ملول، تيزي نوانو، باب ن واياد، تيزي نيريك، أنزار أوفوناس. وبالمقابل، نجد أيت إبراهيم في مجال يفرض عليها التنسيق مع قبيلة أيت مرغاد. ولاغرو، فالقرى المحيطة بمركز أيت هاني، موزعة توزيعا متساويا بين أيت إبراهيم، وأيت مرغاد.

ومما لاشك فيه، أن الحس الأمني يفرض تشكيل جبهات تحقق حماية حدود المجال الوظيفي، تعتمد في مقاومتها على التواصل الثقافي، في أحسن الأحوال، أو على الحرب في أسوئها. والغريب أن المشكل الأمني حاضر بقوة داخل المجال الوظيفي لقبائل أيت حديدو. صحيح أن هناك تجانسا ثقافيا بين

العشائر، لكنه لا يصمد أحيانا أمام العلاقة بين الإنسان والأرض، لذلك لا بد من ضمانات اثنوغرافية.

فإذا كانت عشائر أيت إبراهيم تملك مجالا وظيفيا، يمتد من فج تيسيلا إلى أكدال، وتملك أيت يعزة كل النطاق الكائن شمال غرب فج تيسيلا إلى حدود المجال الوظيفي لقبائل أيت سخمان. وإذا كانت المراعي الصيفية موزعة بالتساوي على القبيلتين، مراعي «تزليت» ل «أيت يعزة»، ومراعي « إزلي » ل«أيت إبراهيم». وإذا كان التجانس الثقافي خير ضمان للأمن بين القبيلتين، فإن ذلك لا يكفي لزرع الاطمئنان في قلوب هذه العشائر المنعزلة في الجبال. لذلك لابد من ضمانات أقوى يوظف فيها الدم البشري في نهاية المطاف.

اهتدت القبيلتان إلى تبادل الرهائن، ففي مجال أيت إبراهيم، بنيت قرية «ألمغو»، لإيواء سكان من أيت يعزة. وفي مجال أيت يعزة، بنيت قرية «أيت علي ويكو»، التي تحتضن السكان من أيت إبراهيم. وبين النطاقين القبليين بنيت قرية تيسيلا التي تضم أقليات من ملوانة، لتشكل عازلا بشريا عرقيا بين أيت يعزة وأيت إبراهيم. والغريب أن الرهينتين «ألمغو » و« أيت علي ويكو» تحت حراسة مشددة.
ففي غرب قرية «ألمغو» توجد القرية الحصن «تمستيرت»، التي تشبه إلى حد بعيد إحدى القلع الفيودالية بأوروبا العصر الوسيط. وفي شرق «أيت علي ويكو»، تموضعت قرية «تغيغاشت»، في حصن دفاعي لتراقب أحوال هذه الرهينة.

ب – واد اسلاتن :

يختلف الوضع بواد أسلاتن عن الوضع بواد أسيف ملول، في أسلوب تبادل الرهائن بين أيت يعزة وأيت إبراهيم.

فلا وجود لقرية رهينة ينتمي سكانها ل أيت يعزة بالمجال الوظيفي لقبيلة أيت إبراهيم بأعلى واد اسلاتن، والعكس صحيح. ولضمان الأمن بين أيت يعزة وأيت إبراهيم بواد أسلاتن تم بناء قريتين عازلتين بين المجالين الوظيفيين للقبيلتين تحضتنان أقليات عرقية، هما أيت تدارت، وتمزازارت.

والمتأمل في التوزيع الجغرافي لعشائر أيت حديدو بواد أسيف ملول، وواد إسلاتن، يلمس تموضع عشائر أيت إبراهيم وسط المجال الوظيفي، وكأن عشائر أيت يعزة، التي تنزح نحو الانفتاح، مدعوة للدفاع عن المجال الوظيفي بالتواصل الثقافي مع قبائل المحيط المجاور، وإذا تعذر ذلك فإنها تستنجد بأيت إبراهيم. ولم تقتصر المجالات العازلة لغاية الأمن على أرض أيت حديدو. ففي هوامش مجال كونفدرالية أيت ياف المان نطاقات عازلة. وحسبنا أنه في منطقة مدغرة أقليات عرقية فاصلة بين الكونفدراليتين القبليتين أيت ياف المان وأيت عطا.

وفي جميع الأحوال، فالقبائل ذات الأنساق الثقافية المحضة أكثر قدرة على المقاومة من القبائل ذات الأنساق الثقافية المنهارة. ولقد حان الوقت لتوظيف الأسس الثقافية للمقاومة لدى أيت حديدو في مقاومة الانعزال والتخلف.

3- الحرب والسلم بين أيت حديدو وقبائل أيت ياف المان الأخرى

يكاد المجال القبلي الأمازيغي في مغرب ما قبل الحماية الفرنسية أن يشبه، إلى حد ما، الكائن الحي في مساره البيولوجي، من حيث ولادته ونموه، وبحثه عن ظروف ملائمة، للعيش وموته واضمحلاله. ومما يميز المجال عن الكائن الحي

أنه يولد بالحرب، وطالما يقتل بها. فهو مرتبط على مستوى الواقع بالدم وتغلفه، على مستوى الرؤية والخيال، ثقافة الدم.

وللحلف القبلي الذي تنتمي إليه قبيلة أيت حديدو، وهو حلف أيت ياف المان، مقاربة استثنائية لتحديد المجال والدفاع عنه، مقاربة تقوم على ثنائية الحرب والسلم، مع الإشارة إلى أن السلم مقدم هنا على الحرب، إلا في أحوال استثنائية.

ولا غرو، فقد أطلق الحلف القبلي المذكور على نفسه اسم «أيت ياف المان». فالعبارة الأمازيغية «ياف المان»، التي ترجمتها بالحرف «ليجد الأمن»، هي في الواقع، شعار يقدم الأمن على الحرب، ويجعل السلم غاية مثلى. لذلك فالحلف يرى أن ينسب إلى الوظيفة «الأمن»، خير له من أن ينسب إلى العرق «أيت فلان»، أو الجغرافية مثل أيت أومالو أو إلى صفة من الصفات «أيت إدراسن». فكيف ينظم الأمن ويدبر كشأن داخل مجال أيت ياف المان ؟

أ- الحرب والمباغثة في الهجوم:

يعد إعلان الحرب واحدا من المواقف الشجاعة لدى قبائل أيت ياف المان، التي تتكون من أيت حديدو، أيت مرغاد، أيت يحيى، أيت يزدك، عرب الصباح. فالشجاعة تتنافى والهجوم المباغث دون سابق إعلان. وسنشير في الفصل المتعلق بالمقاومة في معرض الحديث عن معركة بوذنيب، أن من شيم الأمازيغ أنهم ينذرون الأعداء «إنطليبن» بالأمازيغية، قبل الهجوم عليهم. وفوق ذلك، فالانتصار لا يأخذ صدقه وسلامته، إلا إذا تم إخبار الطرف الآخر، بموعد المعركة. تلك هي القاعدة العامة المرتبطة بأخلاق الحروب لدى الأمازيغ. ونسجل أن هذه القاعدة تنتهك بقليل من الخدعة. فحسب الرواية

الشفوية، كان إبراهيم يسمور اليزدكي من الذين لا يحترمون هذه القاعدة، حيث قيل عنه، إنه أخبر سكان تولال بواد كير بموعد المعركة، معلنا أنها ستشتعل بعد سنة كاملة، إلا يوما واحدا، وفي اليوم الموالي شرع الشيخ إبراهيم في تطويق قريتي تواصلت وسعد الله بتولال[2] واد كير، ولما استفسره أحدهم عن سر انتهاك مدة المهلة، أجاب أن اليوم الموعود، ليس بالضرورة أن يأتي بعد مضي 365 يوما، من الآن، فمن الممكن أن يصادف بداية المدة أو وسطها.

وبمعنى آخر، فالمعنى الأمازيغي للسنة «أسكاس» Ass g ass المركبة من « أس ك أس » «أي يوم في اليوم، و هي في الواقع سلسلة من الأيام، أو بالمعنى الحرفي للعبارة حلقة من الأيام. والشيخ إبراهيم لم يحدد ذلك اليوم الموعود في السلسلة. فتأويل كلمة « أسكاس غير أس »، مكن الشيخ إبراهيم من انتهاز الفرصة، موظفا الخدعة لإخراج سكان تولال من مساكنهم، ليهجروا إلى موضع قرب مكناس، في بحر القرن التاسع عشر. وتحضر المباغثة، لما يتعلق الأمر بأخذ الثأر، أو أثناء معركة مشتعلة بين قبيلتين لبعض الوقت كالمعركة المفتوحة الدائرة بين أيت مرغاد وأيت عطا. ونستشهد بامرأة من قبيلة أيت عطا كانت حذرت رجلا من قبيلة أيت مرغاد لتردده بكثرة على المكان المدعو أمغا، بحوض غريس السفلي، دون أن يتخذ، في زعم المرأة، أي حذر. لذلك حذرته بالبيت الشعري التالي :

A dday da ttadut
A mulay g umagha
Tahdut tisagwiin
Ad urac d iffagh ca

تفسيره :

حينما تعبر يا مولاي أمغا (الصحراء).

انتبه إلى جانبيك لكي لا يباغثك أحد .

وفي ذات يوم، ألقي عليه القبض بمنطقة أمغا ذاتها، واحتضر ليقتل، فسأل أعداءه أن يمهلوه ليرد على البيت الشعري، الذي يحوي التحذير الموجه إليه، وسألهم أيضا أن ينقله شفويا وبالحرف إلى التي حذرته تحذيرا، تبين، الآن، من جديته وصدقه. فالقدر لم يكذب تخوف المرأة التي أدركت أن أيت عطا حازمة على الدوام لأخذ الثأر. فقال في الرد :

A dday da haddugh a iyidr ac rrugh
A dday tawtv a luqt tafd ur hdigh

معناه :

حينما أحرس جانبي وأنتبه جيدا

فإني أتفوق عليك أيها النسر

لكن إذا حم القضاء علي

تجدني غافلا عن الحراسة متهاونا

ويرمز النسر في الثقافة الأمازيغية إلى العدو، وهو من الطيور الكاسرة، التي تفترس جثث البشر في ساحة الحرب. وللنسر بصر حاد، يدرك به الفريسة بدقة متناهية. وللإشارة فإن ذوي النظر الحاد من الناس هم الذين يكلفون لحراسة الممرات الاستراتيجية، وطالما يوظفون كجواسيس مأجورين لمراقبة الحركة في الطرق. وقد حدث أنه في أواخر القرن التاسع عشر، أن زار رجل من قبيلة أيت حديدو منطقة زيز العالي، الممتدة الآن غرب مركز الريش. وفي رحلة الذهاب أدركه أحد الجواسيس المراقبين للمرور بالفج الجبلي تكندوزت، الذي

يفصل مجال أيت حديدو عن مجال أيت يزدك. ولا غرو، فالفجاج الفاصلة بين المجالات الوظيفية للقبائل غالبا ما تكون غير مؤمنة لكونها مناطق الخطر الدائم. ولما عاد الرجل إلى مجال قبيلته ممتطيا فرسه، كان أعداؤه على أتم الاستعداد بالفج المذكور للإجهاز عليه. وفور وصوله المكان المذكور، وبالضبط، لما طفق يعبر موضعا مليئا بالأشجار الغابوية، الدفلى وعود الماء، شرع الأعداء يطلقون عليه وعلى فرسه الرصاص، من اليمين ومن الشمال. لكن الفرس أدرك الخطر قبل إطلاق النار، فقفز قفزتين، ليفر مسرعا، دون أن يترك المجال للأعداء ليصيبوا الهدف. هنالك أنشد الرجل الناجي من الموت بأعجوبة البيت الشعري التالي :

Sagw allig tandar taqqat
Isiggi swal ighf
Is isul ussamud ur yiwitv
Man nettan tiwdv luqt
Izzanzayangh ca g ismunn inw

تفسيره :

منذ سماع أزيز الفج وصداه
وقف فوقي ملك الموت
لكن الأجل لم يجىء بعد
لقد حل وقت الموت و المناسبة مؤاتية
لما باعني أحد أصدقائي

وتعني كلمة «أس أمود» يوم النهاية، أو يوم الموت أوالميعاد. وتعني تمودا مكان الميعاد. ومنه Tamadda «تمدا»، أي النسر، وهو طائر كاسر قاتل.

ويرفض الأمازيغ التجسس، والجواسيس، ومروجي الأراجيف، والأكاذيب. وقد قال في ذلك أحد الشعراء :

Acekkam s acekkam
Ajammadju gher waytv
Id ttamr ad inada gher
Widda tmarnin
Awa kulci illa s ulammud
Amm lamsayl.

معناه :

الجاسوس يناسب الجاسوس
والمهرج يناسب المهرج،
أما المخلص المتلزم فيبحث
عن مكانه بين أصدقائه
تالله، كل شيء يتم بالتعلم كالصنائع.

وباختصار، فالمباغثة في الحرب سلوك ممقوت لدى قبائل أيت ياف المان.

ب- المجال والمجالية في السلوك الحربي:

كثيرا ما تشتعل الحرب من أجل حماية المجال الوظيفي للقبيلة، أو من أجل توسيعه، في حال تكاثر سواد القبيلة، ونمو حاجاتها، إلى مزيد من الموارد الطبيعية. ويتميز المجال المسيطر عليه بالقوة، باحتوائه أثار الحرائق، كما هو حال واد أسيف ملول، الذي طُهر بالنار، بعد انتزاعه من قبيلة أيت عطا، فسار وادا أسود بفعل الرماد المختلط بمياه الواد. وكثيرة هي الأماكن المحروقة بالنار، إن هي نقط الحدود بين المجالين الوظيفيين. وعلى سبيل المثال، أيضا أحرق سفح جبلي قريب من الحد الفاصل بين مجال أيت حديدو، ومجال أيت يزدك، يسمى «أسامر ن تمغوست» ويروج أن منطقة (تديغوست)،

بحوض غريس، تعرضت للحريق، لقربها من فج (أمسد) الاستراتيجي، حيث ينعدم الأمن.

ويوسع المجال الوظيفي للقبيلة بواسطة الحروب. فامتداد المجال القبلي لكونفدرالية أيت ياف المان، على سبيل المثال، إلى قصر «دوار» إكلميمن، كان لهدف السيطرة على غابات النخيل لضمان محاصيل التمر، ولإبعاد الكونفدرالية القبلية أيت عطا، عن الانكسار الجنوبي الأطلسي. ولأن قبيلة أيت يحيى لم تشارك في معركة تيلوين، المندلعة في ربيع سنة 1883 فقد حرمت من نصيبها في إكلميمن بحوض غريس. يقول الشاعر الأمازيغي في ذلك :

Allig ur harrigx
Ann nag tadist inw
Ghur udar inw
Addej ann netc idarr
Sallamghawnt a tiyni

تفسيره :

لما لم أتحرك (لأضع بطني عند رجلي)
دعني آكل البلوط
متنازلا عن التمر.

يتبين من البيت الشعري، أن الحرب تكون من أجل السيطرة على موارد الماء، والمراعي، والمحاطب، والحصول على مغارس النخيل والزيتون، لدعم مدخرات القبيلة.

4- جدلية السلم والحرب:

السلم ليس إلا فصلا من فصول ثقافة الخوف، التي تتجلى في أزياء النساء، وتتضمنها الطوبونيميا، وتبطنها

الأشعار والأمثال الأمازيغية، وقد تظهر فصولها واضحة من خلال تاريخ العلاقات القبيلة، بين أيت حديدو وجيرانها، ويمكن أن تلمسها أيضا في الطوبونيميا، والمعمار، وأساليب التحصين.

فمن خلال الطوبونيميا، تعبر أيت حديدو، على كامل الاستعداد للدفاع عن مجالها الوظيفي. فالقصبة «تمستيرت»، التي تشبه إحدى قلع أوروبا في القرون الوسطى، توحي أن وضع القبيلة أيت إبراهيم، لا يرى عليه آثار السلم والاستقرار. وتعني «تمستيرت»، تصغير ل«أمستير»، حصن الدفاع. وإلى جانب تمستيرت، نجد تيماريين التي تعني الحدود، حدود القبيلة مجالها.وأما أكدال فهو المرعى المحروس المجاور للمكان تيماريين.

وفي المجال المعمر بأسيف ملول، قرى دفاعية على شكل قصبات مغلقة، خالية من الفضاءات الداخلية المفتوحة، تحيط بها أسوار وأبراج،وتتخلل قممها ثقب لرصد العدو وتوجيه أفواه المدافع نحوه، كما سلفت إليه الإشارة.

ومن الأشعار الأمازيغية التي تنصح بإخلاء المجال، وعدم مواجهة العدو، ما قاله الشاعر :

Yusf ur tgigh
Ur turiwigh
Ann nassinf
Ayedda yegh d tiny

معناه :

أنا لم أسم يوسف
ولم ألد يوسف
إنها تناديني (يوسف !) لتقول لي :
«عليك بالفرار والهروب» .

والمقطع الشعري المذكور، قيل على لسان المدعو بوعمران داهية أمازيغي. يقال، إن جماعة من الأعداء أتوا ليقتلوه، ولم يجدوا في الخيمة سوى ابنته التي تشبهه في الذكاء والدهاء. سألوها: «أين أبوك ؟» أجابت: « إنه صاعد الجبل لرعي الغنم». أمروها بأن تناديه،فصاحت: « يا يوسف ! يا يوسف !». ولأن الأب لم يسم يوسف، ولم يلد ولدا اسمه يوسف، ولا علاقة له بمن يسمى يوسف. أدرك أن الابنة تأمره بالفرار. وبالفعل نجا من الموت.

ويقول المثل الأمازيغي :

«Mc ur k annin a Ali tegtasn aggu »

معناه :

« إن لم يدركوا مكان وجودك، يا علي. فاعلمهم بدخان نارك»، لكي يأتوا لقتلك. وهناك أمثلة كثيرة قيلت على لسان الذئب أو القنفذ. وحسب الرواية الشفوية فإن قبيلة أيت حديدو، لا تبرح عاكفة بمجالها الوظيفي مدافعة عنه، وندر ما تهاجم على الجيران، ولو أنها تدافع عن مجالها بالهجوم، لأنه خير وسيلة للدفاع.

- الهوامش:

1- انظر مداخلة لحسن أيت الفقيه في سلسلة الندوات والمناظرات – رقم08- تحت عنوان المقاومة المغربية عبر التاريخ او مغرب المقاومات-المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية-2005ص.ص.429-441.

2-تواصلت قرية مندرسة بمزرعة تولال. وأما سعد الله فهي قرية قائمة، للآن، تحمل اسم أيت مومو العشيرة اليزديكية.

مقاومة قبيلة أيت حديدو من خلال الشعر الأمازيغي

لم تكن المقاومة الذاتية الأمازيغية متوقفة على الحرب الساخنة وحدها. فهناك وسائل أخرى لتحصين المجالات الوظيفية والدفاع عن المال والعرض، أو، في نهاية المطاف، الحفاظ على الأمازيغية بما هي دلالة للحرية والاستقلال. وفي الأوساط الصنهاجية حيث ثقافة الانغلاق، يتدخل الشعر للدفاع عن قيم الصمود والتحدي والتحريض على القتال حتى الشهادة.

يعد الجبل واحدا من الشهود على المعارك التي عرفها الوسط الصنهاجي بجبال الأطلس، ومعلمة راسخة في ذاكرة المقاومة المغربية، الريف، صاغرو، بوكافر، مصطريد، تزكارت تزكزاوت، لهري، أيت يعقوب، بادو ...

فالجبل ليس شاهدا على ما حدث، بل هو رمز الشموخ والكبرياء والحرية والاستقلال. فقد يصعد الإنسان الجبل متمردا عن المركز، وقد يلجأ إلى الجبل ليحصن به خوفا من الخطر، وقد يوظف الجبل كعنصر طوبوغرافي مساعد على الانتصار.

ولئن كان شعر المقاومة الجبلي قطع أشواطا ومسافة كبيرة في مسار الاختفاء، طيلة فترة الركود التي عرفتها الأوساط القبلية الصنهاجية بالجنوب الشرقي المغربي، فإن للحماية الفرنسية دورا غير منكور في دفع الشعراء الأمازيغ إلى إحياء الرصيد اللغوي الموظف في التعبير عن مواقف الدفاع الذاتي. وللأسف، لا يزال تدوين شعر المقاومة الأمازيغي لم يسلك مسارا صحيحا. وإذا استثنينا بعض الندوات التي لا تفتأ الجمعيات الأمازيغية تنظمها حول الشعر الأمازيغي عامة أو

حول شعر المقاومة خاصة، والتي تعد فرصا نادرة لإسماع بعض المقاطع الشعرية، فإن الشعر الأمازيغي لا يزال في قيد الشفاهية. ونود هنا أن ننوه بمجهود بعض الباحثين الجامعيين وغيرهم مثل الأستاذة لالة صفية العمراني بكلية الآداب بمراكش والأستاذ علي حداوي، ونأمل أن يهتدي الباحثون المغاربة إلى تشجيع طلابهم للانقطاع لجمع التراث الثقافي الأمازيغي. نود أن ننوه أيضا برغبة جمعية أخيام بمنطقة إملشيل باتخاذ الشعر سبيلا إلى المصالحة وإنصاف قبيلة أيت حديدو، بعد الانتهاكات الجسيمة لحقوق الإنسان، التي عرفتها بعض المواقع، السونتات، بوزمو، أكدال، إملشيل، ذلك أن إحياء الشعر الأمازيغي وخاصة المتعلق بالمقاومة سيشكل مقدمة ومنطلقا لرفع النسيان والتهميش على المنطقة.

ما علاقة الشعر الأمازيغي بجبر الضرر الجماعي بمنطقة إملشيل؟

يعد الشعر الأمازيغي وسيلة لحفظ الذاكرة. فكل حدث وقع، أو يوشك على الوقوع، يرصده الشاعر الأمازيغي. وفوق ذلك فالعرف المحلي يسمح للشاعر الأمازيغي بأن يقول ما يشاء وينتقد كل شيء ولا أحد يجرؤ على قمعه أو تسطير حدود مجال تفكيره. والشاعر أيضا ينظم قصائده بشكل ينسجم والنسق الثقافي للقبيلة ويوافق رأيه في القضية وتصوره للحدث. لكن الوضع تغير مع وصول المستعمر الفرنسي حيث تعرض الشعراء للمساءلة والاعتقال في أسوأ الأحوال لانتقادهم لانتهاكات سلطات الحماية الفرنسية وتعذيبهم للسكان المحليين ونفيهم لهم وإعدامهم. ولم ترفع المحنة عن الشعراء طيلة سنوات الجمر والرصاص. نذكر في هذا الصدد أن قائد ملحقة

أموكر بشرق دائرة إملشيل الإدارية، أرسل رجلين من القوات المساعدة يعرفون الأمازيغية جيدا للاستخبار على شعراء قبيلة أيت يحيى بزي مدني، لكن مرادهما لم يتحقق حيث أدركهما أحد الشعراء بمحيط رقصة (أحيدوس) فأنشد على التو البيت الشعري التالي:

A muha u hammu
Tellit ala bunt amm uqamri
Tella runda n rriyan
Ghes ad ur takkat

تفسيره:
يا موحى وحمو
إنك قاب قوسين أو أدنى من الانهزام(من لعبة القمار)
يوجد، عند أحدنا زوج من بطاقة الراي(أي رقم 12)
فلا تلعب، واحجم عن الإلقاء بورقتك، من فضلك(تجنبا للخسارة).

وكل يعرف لعبة القمار الورقية التي تشتمل على أربعين ورقة مصنفة إلى عشر مجموعات، كل مجموعة تحوي أربع بطائق مختلفة في الشكل، لا في الرقم، (المجموعة 1 تسمى «لاز»، والمجموعة 2 تسمى «دوس» ... الخ) وهذه المجموعات، تخلو من المجموعة 8 و 9، وتحوي المجموعة 11 «كابال»، أي الفارس، و 12 «الراي» أي الملك. ونضيف أن الشاعر الأمازيغي فضل، تجنبا للمتابعة القضائية، تنظيم القصائد الصماء (أضرضور)، أي القصائد التي لا تلقى في الأسواق أو في الحفلات والأعراس، ومن الشعراء من يرفض تسجيل صوته.

إن إحياء الشعر الأمازيغي بمنطقة أيت حديدو، خصوصا الأصم منه وجه من أوجه المصالحة بين السكان والدولة ومدخل لحفظ الذاكرة.

1. الجبل في شعر المقاومة الأمازيغية.

حضر الجبل في شعر المقاومة الأمازيغية قديما وحديثا. وكلنا يعلم أن معظم القبائل الأمازيغية قصدت الجبل بغية التحصين. وبعد انهيار الدولة المرابطية اتجهت قبائل صنهاجة القبلة نحو جبال الأطلس الكبير الشرقي، والجنوب الشرقي المغربي. وفي فترات تاريخية لاحقة، نشطت الهجرات الصنهاجية من الجنوب إلى الشمال، فاتسع مجال صنهاجة من بلاد زمور إلى سايس إلى الصحراء المغربية الشرقية.

ورغم الهجرات الصنهاجية إلى المنبسط، لا يزال الجبل حاضرا في ثقافتها مضمنا في أشعارها. وكثيرا ما ساهم الجبل في تحقيق كثير من الانتصارات ولو على المستوى العاطفي لا الرمزي. ونشير على سبيل الاستشهاد أن امرأة حررت خليلها من المشاركة في إحدى المعارك، حيث صعدت جبلا يعلو ممر المجندين لخوض المعركة تحت قيادة القائد المدعو أوبنعيسى، واختبأت في أدغال شجرة البلوط الأخضر (أخليدج بالأمازيغية). ولما اقتربت منها قافلة أو بنعيسى صاحت قائلة:

A munnc a laqayd u ben Aissa
Rared asmun inw imezziyn
Ur ighiyy iwabrid Att nekkatn

تفسيره:
أرجوك أيها القائد أوبنعيسى.
أن تسمح لخليلي بالعودة إلي.
لأنه قاصر لن يطيق السير لمسافات طويلة.

وحسب ما نقلته الرواية الشفوية، فإن القائد أوبنعيسى أوقف القافلة وسأل أفرادها: «من منكم تربطه علاقة غرام بتلك الفتاة؟» فلم يجب أحد على سؤال القائد. فالفتى المعني فضل الصمت المطبق، لكي لا يسجنه القائد، أو يعذبه. ولكي يلبي القائد رغبة الفتاة المغرمة بأحد الجنود، طفق يتفقدهم واحدا واحدا، إلى أن عثر على أحد الشبان في يديه آثار الحناء، وتبين له أنه عريس، فأمره بالالتحاق بخليلته. وتنبغي الإشارة إلى أنه في العرف الأمازيغي لا يحق لفتى متزوج لم يقض أسبوعا بجوار زوجته، بعد الدخلة، أن يشارك في المعركة أو في أي عمل خطير. لذلك يمكن القول، إن القائد أوبنعيسى كان ينتمي إلى إحدى قبائل الأطلس المتوسط، لذا أخطأ عن غفل أو عن تغافل. ويعنينا أنه اسيقط من غفلته ببيت شعري من نوع (تماوايت) التي تنشد عادة في القمم الجبلية الأطلسية.

ولا تزال الطوبوغرنيميا شاهدة على لحظات الدفاع الذاتي في الكثير من النقط الجبلية. ففي الطريق التجارية سجلماسة/فاس مواقع الحروب والمقاومة. فمن ذلك قصر «دوار» (أشبارو)، وتعني الكلمة بالأمازيغية الرجل المقاتل المحارب وتطلق الكلمة على كل الدين يقدمون خدمات حربية أو يحرسون مجالا ما. وقرينتنا على ذلك، أنه في إحدى قصائد شعر النقائض الأمازيغية قيل على لسان حصان يهجو بعيرا:

A wac igran ggan imanghi g hman icbura
G hman icbura
A ttannayt assettigh n tablatin
A bu w bacitv

تفسيره:
تمنيت لو ألقي بك في ساحة القتال

في لحظة ساخنة ما، يهيج فيها المقاتلون
ستشاهد (ستسمع) يا صاحب الحافر الهش
وقع الحافر الصلب في ألواح صخرية

وهناك أيضا موضع (أيت شبري)، جنوب شرق(تيزي نتلغمت)، غير بعيد عن موضع (أعباري) ،الذي يعني المدفع.

وعلى طول الطريق التجارية، يوجد فج (تاروبيا)، وتعني الكلمة بالأمازيغية، نبتة الفوة، التي يستخلص منها اللون الأحمر الأمازيغي. ولقد أطلقوا (تاروبيا) على ذلك الفج الضيق، لأنه ميدان للقتال، لقربه من الممر الاستراتيجي «تيزي نتلغمت». ويقال بالأمازيغية: «أوتغت تنيت تروبيا ن إدامن» « Uttaght tnit trubia n idamn». تفسيره: «ضربته فغشيته فوة (تاروبيا) من الدم». ولما كان الأمازيغ يتطيرون، بالدم فضلوا ألا ينسبوا الفج للدم، وإنما لنبتة الفوة La garance. ويطلق على الحصون الدفاعية اسم أكديم، وتقع في الغالب في حدود المجالات الوظيفية بين القبائل، وفي مقسمات الماء بين الأحواض النهرية، مثل « أكديم إغف أمان» بين حوض زيز وحوض غريس. وهناك فج« تيزي نواوال»، أي فج الكلام في حوض غريس. وللكلام هنا، علاقة بالمعركة الدائرة بين قبيلة أيت عطا وأيت ياف المان، بموضع تيلوين جنوب كلميمة في ربيع 1883. ذلك أن المتطوعين من قبيلة أيت يزدك، لما اتجهوا نحو حوض غريس، لشن الحرب على أيت عطا قضوا ليلة بفج (تيزي ن واوال). وفي منتصف الليل سمعوا ذئبا يعوي بجوارهم، فقال لهم أحدهم: «أسا وين إواليون، أسكا وين إفاليون أيوشن» تفسيره: «يا ذئب اليوم للكلام وغدا للسيوف». وتعني «أوال»، أيضا شجرة غابوية توجد بجوار ذلك الفج. إن

عواء الذئب الباحث عن الفريسة هو الذي غير المعنى والقصد الذي يحمله اسم الفج، فلم يعد منسوبا للشجرة الغابوية «أوال»، بل للقول بالفعل في ساحة الحرب. فالذئب صادق في عوائه، لأنه يبحث عن الطعام، والمحاربون صادقون في أقوالهم ،لأن المعركة ستقع فعلا. وفي ملاحم المقاومة ضد المستعمر الفرنسي حضور بعض الجبال.

2.الشعر الأمازيغي بين تشجيع المقاومين وعتاب المتخاذلين.

لم يكن الشاعر الأمازيغي ليصمت عن عدم مشاركة قبيلة أيت حديدو في معركة (تزكزاوت)، التي دارت رحاها خارج المجال الوظيفي للقبيلة، المعركة التي شاركت فيها القبائل الأمازيغية المجاورة، أيت سخمان، و«إشقيرن» وأيت «إحند» و«إزيان»، وبالمقابل ما كان له ليدرك الخطأ الذي ارتكبته القبيلة لما اتخذت قرار عدم الانخراط في هذه المعركة، ويمارس النقد قبل حدوث الانهزام. فالشعراء الأمازيغ طالما يعبرون عن الرأي العام السائد، وقل ما يشاركون في تأسيسه. فقبيلة أيت حديدو التي فضلت أن تصمد بأرضها مترقبة زحف الجيوش الفرنسية على مجالها من ثلاث جهات، الشمال والشمال الشرقي والشرق، لم تهتد إلى أن الهجوم، كيفما كان وقعه على القبيلة، خير وسيلة للدفاع كما يقال. لذلك ما إن وضعت معركة (تزكزاوت) أوزارها، حتى هجا الشاعر حمو أوصالح قبيلة أيت حديدو، وألقى عليها باللائمة لتخلفها عن الحضور بميدان القتال بموقع تزكزاوت، يقول:

Sghuyand ixenzirr i y –amzanyn ddun
Sghuyyand ttalba n ‘ayt wiring n ‘qqim

تفسيره:

استغاثت الخنازير بالمتخاذلين فتأهبو (للقتال)

فاستغاث فقهاء أيت ويرين(منطقة أيت سخمان) ولم نستجب لهم.

وتنبغي الإشارة، إلى أن الشعراء الأمازيغ لا ينتقدون التخلف عن المشاركة في حروب الدفاع عن المجال الوظيفي، فقط، علما أن مقاومة الاستعمار الفرنسي يدخل في هذا النطاق، بل ينتقدون أيضا الاستسلام.

فهذا شاعر، ينتقد المقاوم موحى أوحمو الزياني، قائلا:

Pan Muha u Hammu bu w fala lli tazrim
Iffegh xnifra uryad iqqimi ghes irumiyn

تفسيره:

آرأيت محمد أحمو صاحب السيف كما تعرفه

خرج من خنيفرة و لم يعمرها سوى النصارى

وفي جنوب مجال قبيلة أيت حديدو انتقدت الشاعرة زهرة بنت الطيب استسلام المقاوم عسو أو باسلام قائلة:

Abaslam lligh idfan saghru s ugunun
Allig ti zzanzan iy mghrarn nayt bulan
Alliy k nuli asaghru ha nnbi izwaragh
Alley ki nagz asaghru
Ha nnbi nazritin
Ullah ar paccamv apa nnbi
alliy ki ghder u fus
apa nnbi iwa s iwnat
lislam ad ilin
assalhin n saghru d tassawt
baddat agh

معناه:

يا باسلام (عسو أو باسلام) الذي كان سيد جبل صاغرو
إلى أن باعه لأهل بولان (الكابتان بولان)
حينما صعدناك يا صاغرو (لمقاومة المحتل)
كان النبي في صحبتنا في مقدمة صفنا
ولما نزلنا صاغرو (خائبين مستسلمين)
تركنا النبي بالجبل(أبى أن يصاحبنا ويزكي انهزامنا وتخلفنا)
لقد خجلت أيها النبي من نفسي لما استسلمنا
(لذا) أطلب منك – أيها النبي – أن تساعد الإسلام والمسلمين (للانتصار).
نفس النداء أوجهه لأولياء منطقة صاغرو، وتاساوت،(وحيث توجد قبيلة أيت عطا)، وألتمس منهم الوقوف معنا.

وإذا كان الشعراء الأمازيغ يرفضون التخلف عن المشاركة في المعارك ويمقتون الاستسلام، فإنهم بمعنى آخر يستحضرون الجبل، كرمز للشموخ والعزة والانتصار.

استغاث الحنازيز بالمتخاذلين «إمزانين»، فتأهبوا للقتال وصعدوا الجبال، وخرج موحى أوحمو الزياني من موقع خنيفرة الجبلين عاجزا عن مواصلة القتال، وقرر عسو أوباسلام، الذي أمسك قمم جبل صاغرو، أن يبيعه، في نظر الشاعرة زهرة بنت الطيب للضابط الفرنسي (بولان)، فالجبل مكان العزة، والعزة لمن يصعد الجبل دفاعا عن الحرية وحماية للمجال الوظيفي للقبيلة.

وبموازاة ذلك يمكن للجبل أن يشكل مخبأ للرافضين، في المشاركة في المعارك،أو اللامبالين بما يحدث في الميدان. وقد نعت الشاعر حمو أوناصر بعض الأغنياء من قبيلة أيت حديدو بالتهاون، لانقطاعهم للحرث والرعي، أو مكوثهم في فراش النوم. يقول:

Pan uhmayyu dghi idda ad agh ksben ulli
Iddu ubaawan s id massuft ikerz akal
Aghuzwan genn gw aqqa n bu tadratin sllamnas innafd d ugari
Urawn nnaghn Ayt tubbay d id lbiru
Awa kker a Zayd uhinnad d Uali haddac Aadaw n mulayMuhand aya.

تفسيره:

ها هو أوحمايو ذهب لرعي الغنم

وقصد أو بعوان المكان المدعو (إذ مسوفت) ليحرث الأرض

أما أوغزوان فغارق في نومه بين حقول الذرة مستسلما للحرب (بعيدا عن الرصاص).

لن يقاتل الضعفاء (الذين يعيشون على القليل) مع الجيوش المنظمة المهيكلة

أناديكما، زيد أوحيناد، وعلي أو حداش، لمحاربة عدو سيدنا محمد.

ولقصيدة حمو أوناصر وقع مهم على سكان أيت حديدو، فهي بمثابة مؤثر استجاب له أوحمايو فكف عن الرعي مستعدا لدخول ساحة الوغى. ورد عليه أو بعوان بمغادرة أرضه المحاطة بالبلوط الأخضر [تيسوفا] والذهاب للقتال، وأما

أوغزوان، فقد استيقظ من نومه ليخرج من مخبئه بين حقول الذرة باحثا عن مواقع العدة. وأما زايد أوحيناد، وأوعلي حداشن فكانا عند حسن ظن الشاعر. وباختصار، نهضت قبيلة أيت حديدو بواد أسيف ملول لمناصرة إخوانهم بقصر أيت يعقوب.

3.أشعار أيت حديدو حول معركة أيت يعقوب وبادو

لم يكن الهدف من معركة جبل بادو الدفاع فقط عن المجال الوظيفي، من جهة الجنوب بل إرضاء للضمير المتأثر بالتصوف الطرقي. فالمعارك ضد المستعمر الفرنسي طالما تكون ابتغاء الاستشهاد، والجهاد في سبيل الله. يقول الشاعر:

Tella ljent g baddu tunf ar atvar
I yits mi iktab ad digs msanghan

معناه:

الجنة، هناك بجبل بادو، مفتوحة أبوابها
للبعض الذين كتب لهم الاستشهاد

وقال شاعر آخرن في ما يتعرض له جبل بادو من قصف بالمدفعية، والرصاص:

N samhac a baddu samhi rezmi
Nekk ay dac ttigan ac yegh lkurr

تفسيره:

سامحتك يا جبل بادو، فسامحني واطلق سراحي.
هذا ما جنيته عليك، وبثت تحت القصف بالقنابل.

وقال الشاعر موحى أوناصر عن استسلام أيت حديدو فوق جبل بادو:

Iggudy uhanjif i w hdiddu ur issardi
Inna y-anngh ixatr qqa d irzin irumiyn
Assa taan datawn w _udayn ayenna ran

Annaygh lmanjura takkad y w-Lamghanni afellans
Y tekkas ir n taddart iw- Hmayyu

معناه:

كثر كبرياء أوحديدو (شخص يرمز إلى قبيلة أيت حديدو) لم يطق (الوضع ولم يتحمله)

قال:(إني عظيم قد أطرد الروميين، وسأخرجهم من هذه الأرض !)

واليوم وجدته مستسلما (مطيعا الروميين) أمامكم، (فذلك ما يفعله) اليهود، (الذين باتوا يتجولون أينما شاءوا).

«إني رأيت المنجورة [طريق العربات][1] تمر فوق [ضريح] أو المغني، وتمتد جوار دار أوحمايو [ذلك المقاوم الباسل، وإن ذلك استفزاز، وإهانة لقبيلة أيت حديدو».

ولقد سبقت الإشارة إلى أن الزحف الفرنسي على المجال تستصحبه شق الطريق لمرور العربات، التي تيسر نقل الأسلحة الثقيلة إلى ميدان القتال. وفي نظر أيت حديدو، فإن شق الطريق عبر أسيف ملول إهانة للمقاومين الشجعان، أمثال أوحمايو وسيدي أحماد المغني، الذي كان قاوم الغزو البرتغالي في حياته.

ويقول شاعر آخر:

Ur ac igi ansalm ihaqqan ghes Ayt Tzagzawt d’Ayt Baddu
Uma Ayt y- igig ma Ay Bu iqulla fkanasn digs bujur

تفسيره:

المسلم الحقيقي هو من جاهد في «تزكزاوت»، و«بادو» أما أهل «إيجيج »،و«بو إقولا»، فباتوا يرفعون أيديهم لتحية المستعمر، [ويقولون بوجور Bonjour]. وينضاف هذا البيت إلى الشعر الصوفي المنسوخ حول المقاومة [الجهاد] بجبل بادو.

وعن معركة أيت يعقوب يقول أحد الشعراء:

A ayt yakoub a wa t_arramm i
Tizizwa d ttajin,aghf agh nghan

يا [سكان] أيت يعقوب! إني متأثر بجرحكم لقد قتلونا ونحن على موائد [الغذاء نأكل عسل] النحل والطاجين.

وبالفعل لما انتصر المقاومون على المستعمر الفرنسي بموضع تحيانت، شرعوا يحتفلون بالحدث، داخل الفضاء العمراني لقصر (دوار) أيت يعقوب. وفي اليوم الموالي، وبينما هم يتناولون طعام الغذاء المكون من عسل النحل وأكلة (الطاجين) الأمازيغي، هاجمتهم فرقتان عسكريتان: الأولى قادمة من زاوية سيدي حمزة ، والثانية تكلف بها القائد عدي وبيهي، وتتكون من كل (إمزانين)، أي الخاضعين بالأمازيغية (les soumis)، من سكان واحة تيعلالين وزيز الأعلى. دعمت الفرقتان بجنود الكوم. فتم هزم المقاومين بموقع أيت يعقوب. ولأطباق العسل دلالتها التاريخية، لأنها توحي بأن المعركة تمت في شهر يونيو من سنة 1929.

4- وصف واد أسيف ملول بعد احتلاله من خلال شعر تمديازت.

تشتهر قبائل صنهاجة بشعر تمديازت، وهي قصيدة طويلة ،ذات مقدمة تصب في وحدة العقيدة، وتتطرق إلى أحوال الدهر وأهواله، والتحولات التي تطرأ على المجتمع القبلي في زمان الشاعر، ثم عرض قضايا الساعة، التي هي موضوع القصيدة، وتختم بخاتمة، تدعو المستمع إلى استخلاص العبر، مما عرضه الشاعر. وتعد تمديازت سلاح صنهاجة في الدفاع الذاتي،

وتحصين القيم، وحماية المجال الوظيفي. تلقى قصيدة (تمديازت) في الأسواق، وفي ساحة الفرجة بالقرى الزراعية المحصنة، وفي المناسبات، والحفلات، والأعراس. والقصيدة تمديازت وسيلة للفرجة الأمازيغية، التي تكاد أن تختفي تدريجيا في الميدان بفعل التحولات التي مست الثقافة غير العالمة، وإن شئت البنى، التحتية بالأطلس الكبير الشرقي. ولأن الفرجة الأمازيغية مرتبطة بالقبيلة، بما هي مؤسسة عرفية لتنظيم كل فعل جماعي، فإنها تتأثر بالحياة القبلية، أعني تموت بموت القبيلة، وتنبعث بانبعاثها. ولما كان الانبعاث مستبعدا ما لم تتجند الجمعيات التنموية والثقافية لإحياء هذا النوع من التراث الثقافي، فإن النبش في الماضي لالتقاط مقاطع تمديازت من ذاكرة الشيوخ، يظل مقدمة للحفاظ على الذاكرة الأمازيغية.

ويرتبط مفهوم تمديازت بالتسامح أي «أودوز»Udduz التي تحمل معنى واحدا لدى قبائل صنهاجة. وكل المغاربة يعلمون جيدا معنى كلمة «دوز»، مر أو ادفع. فالمرور، أو السماح بالمرور، بعبارة أخرى، تعني على مستوى المجاز السماح بنقد الوضع. ومما يطبع تمديازت، بما هي لون شعري صنهاجي صرف، اعتمادها على الألغاز[2].

فمن قصائد (تمديازت) ما يرتبط بالفخر، ومنها ما يوظف في الدفاع عن بعض القيم، ومنها ما يصف الحدث. وفي باب الفخر نجد من يستشهد بالمقاومة الأمازيغية، ويعتبرها قرينة للمطالبة بالحقوق الأمازيغية. يقول الشاعر حمو أوخلا:

Kane imazighn imenghan imazwura
Takka telli n lepri agan tamazwarute
Tekka g ayt yaakoub d Thayyant yet lggera

Iccar urumy d umunslm are ittagh uggari.
Allig sadan g iddamn ame ca ughbalu.
Mani talli n Tzagzawt ijran g mayyu
Waxxa meziygh dan d tsellagh iyid ddalil
Mani talligh n bugafer issandrane duniyte
Mani talligh n Baddu d Hamdoun negh d naghul
Alig ddun imazighne mutn g id lguerra.
Dghri nnani amur nec ur ittili g ddula
Qan adi ishu illinwe gher it ghzan gg acal.

معناه:

شارك الأمازيغ في المعارك الأولى.
معركة لهري أولها.
معركة أخرى وقعت ببلدتي تاحيانت وأيت يعقوب.
اختلط الرومي والمسلم، فلا تسمع إلا صوت الرصاص
انتهت المعركة بتحويل الميدان منهلا للدم.
أين معركة تزكزاوت التي وقعت في شهر مايو؟
ولو أني صغير كنت أسمع قصصها وأدلتها وحججها
أين معركة بوكافر التي هزت العالم؟
أين معركة بادو التي أتذكرها جيدا؟
لقد مات الأمازيغ في معارك المقاومة
يقولون لي(لا نصيب لك اليوم في الدولة)
كلا، أقول لهم: (والله سأثبت قدمي وأحصل على نصيبي، وإلا سيشق رمسي).

وتحمل قصيدة تمديازت أوصافا دقيقة لحالات المجال بعيد الاحتلال الفرنسي. ولقد ألفينا وصفا دقيقا لواد أسيف ملول في النصف الثاني من الثلاثينيات من القرن الماضي من خلال قصيدة لشاعر مجهول الهوية. نص القصيدة:

Imilcil nnanagh numez iyzemm imi.
Pa tughmas nnigi pa tugmas ddawi
Imilcil nnanawn a willigh nekk gwafa
Illa lkurr nnigi illa lkurr ddawi
Kighd imelwan afegh n ayt lmanjura
Gan iqma n lxalayq ammi mghin gw acal
Innax Buwazmu awi ligh nekk gwafa
Pa tirgin nnigi pan urfan ddawi
Ay Aqdim lli n iârrimn d tegziwin
Idda Ipiwc Bassu urahhu iwujill ayd wudjan
A Timaryin lli n ihidas d ttahdirat
Idda Ali uhmayyu idda Rhuc d mukka
Ixarf usaklu n Uhammi isas gw acal.
Ay a gdal lligh n ihidas d tapdirat
Kighd ur nnufigh ghas iwtal d wuccan

تفسيره:

إملشيل تقول لنا : «قبضت فم الأسد »
الأسنان من عل ومن تحت
إملشيل تقول لنا : « إني في عذاب النار »
هناك القنابل من عل ومن تحت
زرت إملوان فألفيت عمال الطريق
وجوه الناس [الخلائق] توحي كأنهم بعثوا من الأرض
يقول لك(قصر) بوزمو : «إني في عذاب النار »
الجمر من فوقي والجمرات من تحتي
آه، يا «قصر» أقديم [موطن] الفتيان و الفتيات
مات إهيوش و مات باسو أورحو تاركا الأيتام
آه، يا «قصر» تيمارين [موطن] رقصة أحيدوس وألعاب التسلية
مات علي أوحمايو ومات معه رفيقيه رهوش وموكا

وأسقطت شجرة أوحمي أوراقها على الأرض
ألا يا أكدال الشباب والشابات
زرتك، فلم أجد غير الأرانب، والذئاب.

والمتمعن في متن هذه القصيدة يجد أن الشاعر انطلق من مركز إملشيل، نحو مركز أكدال عكس اتجاه جريان واد أسيف ملول. وإنه من المنطقي احتراما للقيم الأمازيغية، أن يسافر الشاعر مرافقا للجريان المائي. لكنه، هنا، أبى إلا أن ينطلق من الأسفل إلى الأعلى، تعبيرا عن التمرد والمقاومة، التي يرمز إليها الصعود. وربما يكون الشاعر قد رافق الجيوش الفرنسية التي انطلقت من فج باب نواياد متجهة نحو أكدال، عبر إملشيل موتزلي (إملوان)، أيت علي ويكو، إيحوطين، السونتات، تيسلا، بوزمو،ألمغو، تمستيرت، أيت عمرو، أقديم، تيماريين، أكدال. وفضل الوقوف قليلا، عند النقط العمرانية المشهورة باستراتيجية موقعها، أو المشهورة بمقاوميها.

ويقول شاعر آخر عن أيت عمرو:

Ihudr u amr ar alln win tam-azzatin
Y Sidi Ulmghanni mid ikka urumy datas

تفسيره:

انحنى شخص من أيت عمرو، يبكي بكاء العزاء .
لسيدي [أحماد] المغني الذي يمر الروم بجوار ضريحه.

ونريد أن نذكر، بأن ضريح سيدي أحماد المغني، طال ما يذكر في متن شعر المقاومة الأمازيغية بمنطقة إملشيل. ذلك أن سيدي أحماد المغني، واحد من المقاومين للغزو البرتغالي في القرن السادس عشر، وفوق ذلك فالتصوف الطرقي الظاهر في شعر المقاومة الأمازيغي بجبال الأطلس الكبير الشرقي، ينشر اعتقادا ،يقضي تقدير أولياء الله الصالحين في الحياة والممات.

ومن خلال هذا الاعتقاد، يظهر أن روح الولي سيدي أحماد المغني حاضرة بين المقاتلين والمقاومين.

5- رثاء المقاومين في شعر المقاومة الأمازيغي.

اشتهر الشيخ إبراهيم النهو(تمديازت)، من قرية بوزمو، بالرثاء وتنظيم شعر بوغانيم. ومن مرتياته ما قاله عن شهداء قصر (دوار) أكدال وتيماريين:

Qenn ann nut hribbu ma tala tsul tzil
Ghif Uhmayyu d Uhsis tgam ay araw taguli iwulinw
Ad ac allegh a Haddu Ussu mid dan s sin
Hammu jan n U ddani tenna mi trit igit
Amm lfetlat n tarrast.

تفسيره:

سنصيح بالنحيب وندب الخدود، أما البكاء فأهون علي، على فقدان أوحماي،و وأوحسيس، اللذين غيما الحزن على قلبي.
سأبكي عليك يا حدو أوسو، الذي فقد ولديه الاثنين حموجان أودعني الذي يستجيب دوما لما تريد، كفتائل سلهام تراست.

وللتذكير فإن سلهام (تراست) يتأقلم مع الأجواء. ويلبس على وجهتين ولا يتسخ، ولا يغسل بالماء. ويكفي أن تمطر عليه السماء ليعود إلى حالته الجديدة. وإن هذا الوصف ينطبق على الشهيد حموجان أو الدعني، على حد قول الشاعر الشيخ إبراهيم النهو.

وقال المرحوم عدادا بيتا شعريا، يرثي حالته فوق جبال بادو، واصفا نفسه بحشرة تخشى المياه اسمها زري «الصرار»:

معناه:

Lmitl n zerri ayd gigh ard nnaygh tuga
Ar ijgal n ugassis zigh lbehr ikk nnigi

معناه:

إني مثل الصرار أصعد الأعشاب إلى أعلاها

لا أبالي ولا أعلم بأن بحرا من المياه ستغمرني

وللتوضيح، فإن حشرة الصرار (زري)، تفضل صعود العشب كلما أقدم الفلاح على ري الحقل معتقدة أنها ستنجو من الماء الذي يغمر الحقل تدريجيا. لكنها ستجد نفسها غارقة لما تجرفها المياه. وكذلك شأن المقاومين الذين صعدوا جبل بادوا فارين من بطش الاستعمار، متمردين عنه، وفي اعتقادعم أن الجيوش الفرنسية لن تتمكن من صعود جبال بادو، ولكن اعتقادهم خاطئ، حيث أدركهم الموت هناك، ولم ينج منهم إلا القليل. ويرثي شاعر آخر نفسه لما ألقي عليه القبض، بعد مقتل أصحابه، وكانت عقوبته حراسة تاجر متجول يهودي في قيامه وقعوده وسيره. ولا غرو، فتكليف رجل أمازيغي من قبيلة أيت حديدو، بمنطقة أوتربات، بحراسة يهودي، إهانة ليست بعدها إهانة لذلك أنشد يقول:

Sseg mayd ur nammut ssengh
Imci agher iyedda lhal
Gnat a mas-ud akk nemmatr

معناه:

لما لم يدركني الموت [في ساحة المعركة]

عرفت مصير حالي:

« نم يا مسعود سأحرسك ».

وتود شاعرة من قبيلة أيت حديدو أن ترثي ضفادع المنبع المائي قرب المكان المدعو (بو واطاس)، بالمجال الوظيفي

لقبيلة أيت سخمان. فالضفادع لم تسلم بدورها من الغزو الفرنسي باعتبار هؤلاء من أكلة الضفادع. قالت الشاعرة:

A taghbalut n bu attas
Igam urumy ayenna ran
Itc am janninar igwra d'ibuxxa

تفسيره:
يا عين بو وطاس، فعل بك المستعمر ما شاء
يأكل الجينرال الضفادع، والحشرات في مياهك
ولقد اضطرت الشاعرة لوصف ضفادع (بو وطاس)، لأنها تفتقد مثل هذا المشهد بمنطقة إملشيل، حيث يشتد البرد وتقل الضفادع. وللإشارة، فإن هذه الأبيات الشعرية أثرت بشكل كبير في نفوس ساكنة أسيف ملول من قبيلة أيت حديدو، إذا أن الشعر يبعث الحماس، ويجعل الناس يحسون بنوع من الذل والإهانة.
تتأسف الشاعرة تامحات عن المقاوم زايد أوجبور، الذي أصيب بجروح خطيرة في أحد أذنيه بمعركة قرب مركز تينغير:

A hudr a ari bal gragh d'igherman
N tinghir ad annigh Zayd is isul
Taght amazzugh ixuls ayd agh nnan
Ann amn ur nanni ard nakz ifaslan

تفسيره:
انحني يا جبال تينغير لأرى زيدا.
لأرى ما إذا زيد كان حيا.
يروج أنه أصيب في أذنه ولن نصدق.
حتى نتأكد بأعيننا من سلامة صدغيه.

6.المقاومة بين المدح والهجاء.

كثر من يمدح المقاومين ويرثيهم، علما أن المدح والرثاء وجهان لعملة واحدة، فالمدح للأحياء والرثاء للأموات. وقد يحدث أن يمدح ولي صالح من الأموات، علما أن تقدير هؤلاء يستمر في الموت، حسب نظر بعض المتصوفة الطرقيين. والمدح أو الرثاء صناعة المقاومين المتمردين على جيوش الاحتلال الفرنسي. وهناك من يرى في الاستعمار الفرنسي جانبا إيجابيا يكمن في مساعدة المغاربة لدخول العصر الحديث. يقول الشاعر:

A wenna ittezzaan agwa ghif tadawt n mays
Axxid batata d llaft igatn urumy

معناه:

يا من يطرد الحمل من ظهر أمه
ما أجمل البطاطيس، واللفت التي غرسها الأجنبي.

وقال أحد المتواطئين مع المستعمر الفرنسي من أمازيغ القبائل المجاورة بيتا غراميا، لإيثارة العواطف في نفوس المقاتلين من أيت حديدو:

A wa ayd aw hdiddu tamazirt nnec
Ann ayd tinw is nghan imurag ayt uxam.

تفسيره

عد يا أوحديدو إلى بلدك
عد يا أحديدو إلى بلدك
سأعود بدوري إلى بلدي
فالشوق يتعمق في قلوب أهلنا.

وهذا البيت يكشف أن المقاومين من قبيلة أيت حديدو، يتجولون في هوامش مجالهم الوظيفي، ابتغاء مقاومة المستعمر الفرنسي. ونظمت شاعرة من قبيلة أيت حديدون أبياتا شعرية عن حجم القوات الفرنسية بمكناس، والتي تشتمل أساسا على طيران حربي، لتذكر الناس بأنهم لن يقدروا على الصمود، والمقاومة. وما عليهم إلا الاستسلام، وقبول الأمر الواقع. نقتطف من شعرها بيتا واحدا معبرا عن تلك القوة:

Ammer tnnaym mimc itteg urumy
I ttayyara ghif tadawt n Hamriyya g uzaghar
Da ts izzizil imiqq ibtutn wafa d wacal

معناه:

لو رأيتم كيف يفعل الرومي بالطائرة
فوق كدية حمرية من بلاد (أزغار)
يقودها مسرعة (على الأرض)
وتمكنها تلك السرعة على مفارقة الأرض(للطيران في السماء)

وتعني بذلك أيضا: لو رأيتم ذلك، لما تجندتم للمقاومة، وإني أنصحكم بالاستسلام.

7 – المقاومة في الشعر الأمازيغي

يختلف الخطاب الشعري الأمازيغي في الأوساط الصنهاجية عن غيره من الأوساط لطغيان الرمز عليه، واشتماله على الألغاز. ولا غرو، فصنهاجة (أزناك) وإن كانت تعني سكان الواحات، فهي تعني أيضا بالأمازيغية الغامض أو المتحدث بالألغاز. ولأن الرمز يترك وقعا في النفوس، ولأنه أيضا لغة صنهاجة المفضلة، فقد لعب الشعر الأمازيغي دورا كبيرا في تحريض السكان على القتال، وتشجيعهم على الصمود

ورثائهم في حال استشهادهم. والرثاء ما هو إلا نوع من أنواع تكريم المقاتلين.

نخلص مما سبق ذكره، في هذا الفصل، أن الشعر الأمازيغي وسيلة للمقاومة، وأداة للتدوين التاريخي. ولأن الشعر الأمازيغي يظل محفوظا في الذاكرة مستمرا في الزمان، فإنه مفيد للحفاظ على ذاكرة قبيلة أيت حديدو، والتي ترى أنه منذ وصول المستعمر الفرنسي عرفت بعض التحولات، تزلزل في الغالب قيمها، وتعمل على إخراجها من الانغلاق الثقافي.

ومن بين رموز التحول التي حملها المستعمر الفرنسي، طريق العربات التي حلت محل مسالك الدواب والمشار إليها في الشعر الأمازيغي ب «المنجورة». فالطريق التي شقها اللفيف الأجنبي المعروف بالأمازيغية ب(جوييو)، أهانت المقاوم أوحمايو، وكذا ضريح سيدي أحماد المغني، بقرية أيت عمرو. وهي أيضا رمز للانفتاح الذي حمله الأجنبي. وقد وصف الشاعر العمال المشغلين في ورش الطريق قرب قرية موتزلي، شرق إملشيل، كما لو بعثوا من القبور، للقيام بمهمة غير شريفة.

ولم تطق الشاعرة الأمازيغية إقدام الأجانب على أكل الضفادع (إكرى). ولا شك، أن استغراب الشاعرة من سلوك هؤلاء الغذائي امتداد لاستغراب الأمازيغ، من قبل، من المستعمر الروماني. فالفرنسيون هم الروم الجدد، والكلمة ضفداع، تعني (أكرو) بالأمازيغية، وهي (لاكرونوي la grenouille) بالفرنسية، والربط بينهما، كالربط بين الماضي القريب، والماضي البعيد، وذلك من اختصاص الذاكرة. ومما يرتبط بالذاكرة، أيضا، ذلك الفاصل التاريخي بين الاستعمار الروماني، والفتح الإسلامي. فالرومي، كما سلفت إليه الإشارة،

يرمز إلى الماضي البعيد، والنبي يرمز إلى الفتح الإسلامي. قال أحدهم:

Ad tcegh ur tcigh
Assegh tadist inu
Syan izikr
Awa yufangh nnabi arumy.

معناه:

أكلت أم لم آكل
سأحزم بطني بالحبل
فالنبي أفضل من الرومي.

وقد سبقت إشارة الشاعرة زهرة بنت الطيب، إلى أن النبي سبق قافلة المقاومين إلى جبل صاغرو. واستدركت قائلة بأن المقاومين تركوا النبي لما نزلوا صاغروا مستسلمين. فالكلمة رومي تقابل ذلك الرومي القادم من روما قديما، ولا تعني بالمرة النصراني. والروم بالأمس هم الروم اليوم، والتاريخ يعيد نفسه، أو بالأحرى، تعيد الذاكرة الأمازيغية ترتيب الحدث. وكما هو الحال في الأوساط الصنهاجية المغلقة، يرفض الشاعر الأمازيغي بوسط قبيلة أيت حديدو لغة الأجنبي الدخيل وثقافته وسلوكه. لذا لا يكلف نفسه عناء ترجمة بعض الأسماء الممكن ترجمتها إلى الأمازيغية، مثل Sénégalais التي تعني السينيغاليين[01] أو «Saligan» الأمازيغية، أو البحث عن مرادفتها، مثل ساليكان بالفرنسية، والتي يمكن ترجمتها إلى الأمازيغية، وكذا «جنينار» أو الجينرال المشار إليه في البيت الشعري، والذي يعني أمغار أو «أمنوكال». وبالمقابل، ينعت المقاومون الأمازيغ، ومعهم الشعراء الذين سقطوا تحت الهيمنة ب «إمزانين»Imzanin، وهم المتخاذلون

المستسلمون، وقد سبقت الإشارة إليها، في الفقرات السابقة. ويمكن أن نضيف هنا بيتا شعريا ذا دلالة، للفصل بين إمزانين وإميامازن :

Innac Bab n wayyad a tizi n taqqat
Pan arumy ibedda d ann nebdu g imyamazn

تفسيره :

يقول لك [فج] (باب نواياد)
يا فج (تقات) وقف الرومي [هنا]
وسنبدأ في الاشتباك.

تعني الاشتباك.Imyamazn« إميامازن »، ويوصف «إمزانين» بذوي الضمائر الميتة. يقول الشاعر :

Mmutn ayt ulawn jaj ifrane
Id war ulawn ag qqiman lla da thawasn.

معناه :

مات ذوو القلوب الحية في أعماق المغارات
وبقي غيرهم يتجولون في [الميدان]

وكيفما كانت القيم الإيجابية والسلبية التي حملها الشعر الأمازيغين في مرحلة الحماية الفرنسية، فإن المجال الجغرافي الجبلي حاضر في معظم الأشعار، من مرحلة الاستعداد للحرب إلى مرحلة خوض المعارك، إلى مرحلة ما بعد الحرب فأثناء بداية الزحف الفرنسي على الأطلس الكبير الشرقي صاح أحد الشعراء :

Ay iâarrimn n'ayt Brahim
Iss ghurun illa laxbar
Awi ihazzemd urumy
Ikkasd affella iwdrar
Awi zzenzat aratn ad tasghim lâadda

معناه :

يا شباب [قبيلة] أيت إبراهيم
هل أتاكم الخبر ؟
فالرومي قادم من أعلى الجبل
فعليكم ببيع الخرفان لشراء الأسلحة.

وقد ذكر جبل بادو في كثير من الأبيات الشعرية لعلاقته بواحدة من المعارك التي خاضتها قبيلة أيت حديدو خارج مجالها الوظيفي. ولا شك أن الدفاع عن المجال الوظيفي معناه الدفاع عن الجبل. يقول الشاعر :

Awa ut awahdiddu tamazirt ns
Ghf ittamtat yan ur inni
Hadd ad ast iâawn.

تفسيره :
قاتل يا أوحديدو
فعلى بلده يقتل الإنسان و يقتل
ولا من يساعده عليها.

وللإشارة فقد بالغت قبيلة أيت حديدو في المشاركة في المعارك خارج مجالها الوظيفي. وإنها تقاتل دفاعا عن الجبل الذي يضمن لها التحصين المستمر، ويوفر لأغنامها العشب ويضمن لأسرها الماء والحطب.

ويقول الشاعر الأمازيغي :

A tunfiyt yeghen saligan gw assa afella
Nnel ad iadel isselk add iddu ghurm

معناه: يا بلدة تونفيت نزل السينيغاليون يومها في أرضك
مهيئين أسلاك (الهاتف) ليحلوا بك.

يمكن ترجمة السينيغالي ب(إسمغ) الأمازيغية أو من دولة صنغاي قديما. ولا تعني إسمغ بالضرورة العبد.

وترمز الأسلاك (أسلاك الهاتف) وطريق العربات (المنجورة) إلى الغزو الحضاري الفرنسي.

الهوامش :

1- المنجورة تعني طريق العربات وتسمى كذلك لأنها تشق بإتقان كما لم نجر الأرض بمنشار الخشب. ولقد وظفت الطريق (المنجورة) في المقاومة. ذلك أن المقاومين لايفتأون يقطعونها بأحجار ضخمة ولما ينزل ركاب السيارات لإزالة الأحجار يتم الإجعاز عليهم.
2- تعني كلمة (دوز) بالأمازيغية الاندفاع والمرور والقفز.

المقاومة لدى أيت حديدو
- مقاربة الإشكالية –

التأريخ للمقاومة لدى أيت حديدو، لن يبلغ مستوى التاريخ كعلم يدرس الإنسان، ككائن له ماض، رغم ما يمكن أن يقوم به المؤرخ من مجهود في استقصاء الخبر. ومرد القصور في تحقيق مراد المؤرخ، إلى غياب النص المكتوب غيابا كليا. صحيح، أن الضباط الفرنسيين يكتبون تقارير حول مهامهم المكلفين بها بأرض المغرب، متضمنة في بعض الأحيان التفاصيل الصغيرة للحدث، لكن هذه التقارير غير متوفرة. وأمام غياب المادة التاريخية، في الحال، مع التسليم بأن التاريخ ينعدم حينما ينعدم النص، لا يجب الانصراف والتصريح بالعجز، لأن قبيلة أيت حديدو، تدون تاريخها بأسلوبها الخاص، تدوينا، لا يختلف كثيرا عما يمكن أن يحويه النص المكتوب. فالقبيلة تدون الحدث بالشعر وبالرمز، ثم الرواية الشفوية التي لا تخلو من بعض فصول اليقين. ولقد ارتأينا، تحقيقا لفصل المقال بين ما هو ثقافي محض، وما هو تاريخي يدخل في صلب اهتمام المؤرخ، أن نخصص للمقاومة لدى قبيلة أيت حديدو فصلين، فصل ثقافي عنوانه الأسس الثقافية للمقاومة لدى أيت حديدو، وهو فصل يؤطر مادة هذا الكتيب، وقد فصل فيه القول من قبل، وفصل يحاول مقاربة الحدث، أو في أسوأ الأحوال، يحاول مقاربة إشكالية التأريخ للمقاومة لدى أيت حديدو. فمن بين عناصر الإشكالية المذكورة أنه، إذا استثنينا معركة جبل مصطريد فإن المعارك الأخرى التي احتضنتها جبال الأطلس الكبير الشرقي، قادتها أيت حديدو إلى

جانب قبائل أيت ياف المان. وإذا استثنينا معركتي مصطريد وأيت يعقوب فإن المعارك الأخرى مثل تازكزاوت وبادو وغيرها وقعت خارج المجال الوظيفي المتجانس لقبيلة أيت حديدو. علما أننا نخال الجزء الكبير من ذلك المجال تغطيه دائرة إملشيل. ونضيف أنه، لم يكن التحالف القبلي أيت ياف المان صامدا أمام الغزو الفرنسي للأطلس الكبير الشرقي، حيث انسحبت أيت يزدك من التحالف المذكور، منذ بداية العقد الثاني من القرن العشرين. وأخيرا، نسجل أن منطقة أيت حديدو شهدت نوعين من المقاومة، المقاومة المسلحة، والمقاومة السياسية، لانخراط أيت حديدو في الحركة الوطنية المغربية. ولتجاوز هذه الإشكالية يمكن القول، إن كل معركة شاركت فيها أيت حديدو سواء داخل منطقتها الممتدة من غرب فج تكندوزت إلى خوانق أسيف ملول، ومن باب نواياد إلى أيت هاني، أو خارجها، كمعركة بوذنيب ومعركة بادو(تجاوزا)، يجب الوقوف عندها بالدرس والتحليل. وبالمقابل كل مقاوم صنع الحدث بأرض أيت حديدو، ولو لم ينحدر منها، يستحق التعريف به. ونضيف أن كل مقاوم ينحدر من قبيلة أيت حديدو، خرج عن نطاق القبيلة وكتب له الانخراط في المقاومة، يستحق هو الأخر التعريف به والتذكير بنضاله. وسنخصص للمقاومة السياسية من الخمسينات من القرن الماضي إلى مارس 1973 فقرات، ندرج خلالها ما تم جمعه من الأخبار والروايات في مؤلف آخر إن كتب له الصدور.

1- المعارك التي شاركت فيها أيت حديدو خارج أرضها

لعل من المفيد، أن نشير إلى أنه لم يحدث، حسب ما نقلته الرواية الشفوية، أن انقطعت أيت حديدو لرئاسة الكونفدرالية

القبلية أيت ياف المان، فالزعامة لأيت مرغاد في أحسن الأحوال ول« أيت يزدك» في أسوئها. وعلى حين أنها تفتح مجال الرئاسة دوما لقبيلة أيت مرغاد، فإن ذلك لا يفيد أنها تتهاون في الدفاع عن مجالها، وعن مجال حلفائها القبليين في الكونفدرالية السالف ذكرها. وبالمقابل، لم تتنازل عن الزعامة الحربية لأية قبيلة حليفة في الكونفدرالية، حيث تضمنت الرواية الشفوية شيئا عن البطل سعيد أوبوعزة، وأوطرمون المرغادي.
وكان من أبرز سمات أيت حديدو أنها تلجأ في نواح معينة، إلى استعمال القوة، لذلك تعتمد على التعاضد، وتوظف التحالفات أحسن توظيف، وتحترم الجوار وتلتزم بالحدود. وبمعنى آخر، حينما تلجأ قبيلة أيت حديدو إلى استعمال القوة، فإنها لا تبتغي الهجوم، وإنما تضطر للدفاع عن الأرض، وانتزاع الحق الضائع. فالتعاضد واحد من الأساليب الذي يضمن لهذه القبيلة قوتها، ويقوم التعاضد على توحيد الصف، وجمع الشمل واحترام الحدود مع الجار، والحرص على حماية المجال الرعوي الكبير، الذي يمتد إلى ما وراء الانكسار الجنوبي الأطلسي. وباختصار فالقبيلة مدعوة لخوض كل المعارك المندلعة بعيدا عن مجالها الممتد، من غرب فج تكندوزت إلى خوانق أسيف ملول، أي يغطي جزءا من أسيف ملول وجزءا من أعالي واد زيز في مجال الحلف القبلي وامتداده.

أ- معركة بوذنيب :

وقعت هذه المعركة في الواقع قرب قرية بوذنيب. وفي الحقيقة، فإن قرية (تزكارت) هي التي استقبلت المقاومين، واستضافتهم، لكنها اختفت في الذاكرة. ومرد ذلك، إلى أن

بوذنيب احتضنت الحدث الذي شكل سببا رئيسيا لتنمية روح المقاومة الجماعية، والفردية، وإحياء ما كان يسمى «الدفاع الذاتي». فاحتلال المنطقة حدث فريد من نوعه في منطقة لم تتعرض للإهانة منذ الاحتلال الروماني، وبعده الاستعمار البرتغالي والاسباني، لذلك دق الكل ناقوس الخطر، وتأهبت القبائل المتواجدة بالأطلس الكبير الشرقي والأطلس المتوسط وواحات تافيلالت للمشاركة في تحرير بوذنيب، التي احتلها الفرنسيون سنة 1907، لذلك اختفى دور قرية (تزكارت) في الدعم الذي وفرته للمقاومين. و«قدر الفرنسيون أنه قد تجمع ما بين خمسة عشر ألف وعشرين ألفا من الرجال المسلحين بكل شيء، من البنادق من نوع لوبيل ذات الطلقات المتكررة إلى السكاكين و«الهراوات» في أواخر غشت في توكرت [تزكارت]، وهو قصر(دوار) يقع على واد كير العليا، على بعد 30 كيلومترا ونيف من بوذنيب »[01].

ومن شيم الأمازيغ، أنهم ينذرون العدو قبل الهجوم عليه. لذلك أرسلوا بمبعوث إلى الحصن بوذنيب، حاملا رسالة، جاء فيها: « إلى قائد الفرقة الفرنسية في بوذنيب. السلام على من اتبع الهدى ووهب نفسه لله الغفور، وسعى إلى العدل. اعلم أنه منذ وصولكم إلى الصحراء، قد عاملتم المسلمين الضعفاء معاملة سيئة. ومررتم من غزو إلى غزو. لقد خدعتكم روحكم العمياء وجرتكم إلى تدميركم، وأذقتم بلادنا آلاما مرة مرارة الحنظل. إن المحاربين المسلمين الشجعان والنبلاء يتقدمون إليكم مسلحين لتدميركم. فإذا كانت لديكم قوة، فاخرجوا من وراء جدرانكم للحرب وسترون من هو الأنبل البومة أو الصقر»[02]. وقد كاد المقاومون، أن ينتصروا، لولا تدخل

«الإمدادات التي أتت من بشار وباستعمال 16 آلية من المدافع التي عززت المدفعية الموجودة »[03].

شكلت معركة بوذنيب منعطفا تاريخيا في المقاومة القبلية، وإن شئت في التحالف القبلي، بالجنوب الشرقي المغربي، حيث فتحت قبيلة أيت يزدك، العضو الرئيسي في الكونفدرالية القبلية أيت ياف المان، باب التفاوض السري مع سلطات الاستعمار الفرنسي. وظلت أيت حديدو مكافحة إلى جانب أيت يحيى وأيت مرغاد، ولم تخمد المقاومة بالأطلس الكبير الشرقي إلى حدود منتصف الثلاثينيات من القرن الماضي.

ب- معركة بادو

يقع جبل بادو في المجال الوظيفي لقبيلة «أيت حديدو ن أمطغوس» و«أيت يحيى نكردوس». ومن أبرز سماته أنه لم ينسب لأية قبيلة من القبائل المجاورة له المحيطة به، أيت مرغاد، أيت حديدو، أيت يحيى ن كردوس، كما هو حال جبل أسامر نايت يعزة بإملشيل، وأسامر نايت فركان شرق مركز الريش، وجبل مسروح المنسوب إلى قبيلة أيت مسروح شرق مركز كرامة. ولم يشتهر بغابات كثيفة متنوعة تشكل موردا اقتصاديا للسكان. فالجبل يكاد أن يكون مجردا من الموارد الطبيعية، لولا نمو بعض النباتات الطبية في سفوحه. فالجبل امتداد للمجال المسمى بالجنوب الشرقي المغربي «بلاد الشيح والريح»، لا ترى فيه إلا نبتة «الشيح» المتكاثرة بسرعة، ولا تسمع فيه إلا صفير الرياح. وهو تعبير يدل على الخلوة التامة. ولقد شاءت الأقدار أن يشتهر الجبل بواحدة من المعارك

المشهورة التي خاضتها القبائل الأمازيغية بجبال الأطلس الكبير الشرقي، «معركة بادو 1933». ولاستقصاء أخبار المعركة، وأسبابها، لا بد من التقاط ما اختزنته الذاكرة. وفي هذا الصدد، نصرح أننا استثمرنا جيدا الاستجواب الذي تم مع السيد لحسن إيموتاس من قصر أكوراي، والذي أنجزه ورتبه وكتبه السيد موحى ناصر، اطلعنا عليه في مدونته على الأنترنيت. والسيد إيموتاس واحد من المشاركين في المعركة المذكورة والذين كتب لهم أن يعمروا بعض الوقت ليبلغوا إلى ذوي الأقلام ما شاهدوه وعايشوه، قبل ظهور التدوين بالمنطقة. ولن نغفل عن الاستئناس، بما هو مضمن في كتاب «الكفاح المغربي المسلح في حلقات»، المبين في الهوامش أسفله. ألقى السيد لحسن إيموتاس نظرة على المجتمع العرفي التقليدي بأعالي غريس، في القرن التاسع عشر، فأشار إلى دور الوسطاء «أو تيميح، يوسف أحمو، موح علي ...» في إصلاح ذات البين بين الأشخاص، وفي حال فشل الصلح، يتم اللجوء إلى القاضي سيدي محمد أولحاج، وهو المكلف أيضا بالشأن الديني إلى غاية استشهاده في معركة بادو في غشت 1933. بعد مضي هذه الفترة الأخيرة من عهود «السيبا» بالمنطقة، وصل المستعمر الفرنسي مقسمات الماء بين حوضي زيز وغريس، ولما تعذر عليه المرور عبر خانق تاغية بفعل شدة المقاومة، تبينت ضرورة شق طريق تمتد إلى قصر «دوار» تانة، عبر جبل (تاكنسا)، غير البعيد عن مركز امزيزل الذي احتله المستعمر الفرنسي سنة 1928. وفي ظرف ثلاث سنوات تمكن المستعمر من بلوغ تانة سنة 1931. وقد حدث بعد عبوره (تاكنسا)، أن نادى مناديا بكل النقط العمرانية بواد غريس بالجهاد، أي

النهوض لاعتراض سبيل القوات الفرنسية، التي اخترقت الجبال المحاذية لحوض غريس، وقد استجاب المجاهدون للنداء، فاعترضوا سبيل المستعمر قرب ضريح سيد امحمد أيوسف، وأجبروا القوات الفرنسية على التراجع، لكن صمودهم لم يدم طويلا، حيث أطلق عليهم الضباط الفرنسيين المرابطين خلف الكوم النار، وقد استعملت الطائرات لمواجهة المجاهدين وقصف مواقعهم. ويضيف السيد إيموناس، أن الطائرات كانت تنطلق من مركز الريش، لتقصف بشكل همجي كل المواقع العمرانية بواد غريس. هنالك فضل المجاهدون صعود جبل بادو، أملا في التحصين، ولقد نزلت أيت حديدو ميدان المعركة، بعد أن فر إليها ثلة من الرافضين الاستسلام بقصر «دوار» أكوراي، والاستجابة لنداء القبطان روسي.

ولقد قضى الفرنسيون بعض الوقت، في احتلال مركز أسول، وبعض النقط العمرانية بأعالي غريس، مما مكن القبائل المجاورة من التجمع بجبل بادو، يسقون من عين أخيي وتأتيهم المؤونة من السكان المستقرين بالقرى المجاورة. ولما تمكنت القوات الفرنسية من الاستيلاء على العين المذكورة، اضطر الكثير من المجاهدين إلى الاستسلام، وفضل البعض الآخر، الالتحاق بجبال صاغرو لمواصلة المقاومة. ولم ينج الذين استسلموا وسلموا أنفسهم للقوات الفرنسية من بعض العقوبات، وكان آخر من استسلم، هو أوسكنتي ومجموعته. تلك بعض الخطوط العريضة للمعركة حسب رواية لحسن إيموتاس[4].

وفي الحقيقة، ما كانت القوات الفرنسية لتغلب المجاهدين لولا تدخل مجموعتين عسكريتين، هما مجموعة مراكش ومجموعة مكناس. ففي ليلة الثالث من شهر غشت «استولت

مجموعة مكناس النظامية قبيل الفجر على جبل (تاعدادت) بينما استولت القوة المساعدة على فج تيزي نوغازن أمام «أيوب». وفي خامس غشت 1933 احتلت مجموعة مراكش الوجه الشرقي لجبل حمدون،(05) وكلما تقدمت القوات الفرنسية للسيطرة على الجبل إلا و عانت من شدة المقاومة».

وكانت فرقة أيت حديدو قد رابطت في شعبة (أقان تازاغت) إلى حدود 8 غشت 1933. وقد ساعد قبيلة أيت حديدو على الصمود شقيق شريف تيلمي سيدي بن احماد. وحسب الرواية الشفوية فقد قتل سيدي بن أحماد بترغيست بمنطقة أنفكو قبيل معركة بادو بأسابيع. ولم تخمد معركة بادو إلا بعد مضي 50 يوما من القتال المستمر. وسنفصل القول في شخصية المقاوم سيدي بن أحماد في الفقرات المنظورة من هذا الكتاب.

2- المعارك التي خاضتها أيت حديدو بأرضها

يمكن القول، إن المقاومة بأرض أيت حديدو الممتدة من فج تمكورت شرقا إلى خوانق أسيف ملول وجبل مرشيط غربا، ومن جبل العياشي وأسامر إسلاتن وتيزي ن إيريك وباب نواياد شمالا إلى جبل بادو وتينفنيت وأقان امزيزل جنوبا، دامت ست سنوات على الأكثر من يوم 28 أبريل 1928 إلى حوالي 1934. وقد شهدت هذه الفترة معركتين مشهورتين، معركة أيت يعقوب سنة 1929 ومعركة جبل مصطريد سنة 1933 ومعارك أخرى يمكن القول، إنها عبارة عن مناوشات، معركة تيرغيست، معركة تاوجيمت نعري. أما المقاومة الفردية فقد استمرت إلى غاية استقلال المغرب.

أ- معركة أيت يعقوب

حدثت بعد (احتلال امزيزل يوم 28 أبريل 1928)[06] وشروع المستعمر الفرنسي في اقتحام مجال قبيلة أيت حديدو. صحيح أن القوات الفرنسية اهتمت بمحور حوض غريس أكثر من أعالي زيز التي يغطيها مجال أيت حديدو. لكن ذلك لا يمنع من القول، إن فرنسا سارت على مسارين (طريقة الكماشة)، متبعة أشغال شق الطرق. ففي سنة 1928 انتهت أشغال شق نفق زعبل، أو بالأحرى، الطريق الرابطة بين ميدلت وواحة تيعلالين التي تسمى ورش طريق زيز الذي دشن العمل به حاكم ناحية مكناس فريد انبرك[07]، وفي يوم 29 أبريل جرى احتلال البرج وأيت يعقوب، بدون استعمال السلاح [08]، وقد تزامن ذلك بلا شك مع انتهاء أعمال شق طريق العربات الممتد من الريش إلى شرق مجال قبيلة أيت حديدو. وفي تلك الأثناء تأهبت قبيلة أيت حديدو لمواجهة المستعمر الفرنسي تحت قيادة شريف تلمي سيدي بن أحماد كما تقول الرواية الشفوية. وهناك من تطوع للجهاد من قبيلة أيت سغروشن من فخدة أيت داود أو موسى و أيت بوبكر. ويعنينا أنه تقدمت إلى المنطقة حركة مركبة من 2500 بندقية حمالتها (من أيت حديدو الجبليين وأيت يحيى)[09]، وحققت بعض الانتصار على الحامية الفرنسية وتم استقدام النجدة الضرورية فقام الطيران بغارات عديدة[10]، فحققت فرنسا على المجاهدين انتصارا. وحسب الرواية الشفوية فإن المقاومين لما تمكنوا من الانتصار على الحامية الفرنسية قرب تحيانت قصدوا قصر (دوار) أيت يعقوب للاحتفال بالنصر فهاجمتهم الطائرات الحربية الفرنسية فقتل منهم الكثير. لذلك قال فيهم الشاعر الأمازيغي:

A ayt iaqqub
A wa târram-i

Tizizwa d ttajin
Aghf agh nghan

تفسيره :

يا أيت يعقوب
تأثرت بمأساتكم
قتلونا على موائد العسل، والطاجين.

وللإشارة فـ«تيزيزوا» أي النحل بالأمازيغية ترمز إلى العسل وأما «الطاجين» فهي أكلة مغربية مشهورة في الجبال. ويقول شاعر آخر :

A ayt iaaqqub a tin imalin
Kku ighrem yuder digs i acra

تفسيره :

يا أيت يعقوب
يا أصحاب الحظ التعيس
كل قصر «دوار» دفن بها عشرة أموات (أيت يعقوب)
عشرة قتلى.

وتشتهر أيت يعقوب باحتضان قبور الإثنيات المختلفة. وقد كانت قبل مجيء أيت حديدو تؤوي سكان قبيلتي كروان وأيت عياش، حسب الرواية الشفوية، وكانوا يمارسون الزطاطة (كلمة أمازيغية تعني الحراسة) بالممر الاستراتيجي تيزي نتلغمت، بأمر من السلطة المركزية. وفي مطلع القرن السابع عشر تحالفت أيت موسى وحدو إحدى بطون قبيلة «أيت كرهور» الحديديوية مع كروان لإخراج أيت عياش من القرية، وكان النجاح حليفها. ولم يمكث التحالف الجديد المكون من أيت موسى وحدو، وكروان، سوى بعض الوقت، لتستنجد أيت موسى وحدو بشقيقتيها أيت سعيد وحدو، وأيت عمرو وحدو،

فتم إخراج كروان من أيت يعقوب عنوة. وكانت أيت عياش قد استقبلت يومها أسرة قادمة من فيجيج، انقطعت لتعليم أبناء القرية، وممارسة التصوف الطرقي على الطريقة الشاذلية الجزولية، وهي التي ستؤسس الزاوية العياشية في سنة 1635ميلادية. وبعد الخروج القسري من أيت يعقوب، اتجهت أيت عياش نحو هضبة ملوية شمال جبل العياشين، قبل أن ترحل بعض عشائرها إلى هضبة سايس.

ب- معركة مصطريد

لا نعلم عن معركة مصطريد شيئا غير ما نشره الأستاذ Michaël Peyron ميشيل بيرون في مجلة هيسبريس تمودا[11]. ولأن الأستاذ بيرون يتقن اللغة الأمازيغية، ويحفظ أشعارها، ولا يزال يقضى وقتا طويلا بالمنطقة، فإن كتاباته حول أيت حديدو، تعد مصدرا مهما لكل من يبتغي بناء تصور حول تاريخ المقاومة بالأطلس الكبير الشرقي. ولم يقتصر الأستاذ بيرون عما روي له، وهو يتجول بمنطقة أسيف ملولن بحثا عن الأشعار ومواطن التاريخ، بل اعتمد على مجموعة من الكتب، والتقارير جلها يتناول مفهوم التهدئة، ووقائعها بالأطلس الكبير الشرقي. فالدراسة التي أعدها بيرون حول معركة جبل مصدريد المظل على بحيرة إيزلي، من جهة الشمال الغربي وعلى مجموعة قرى تلمي (أيت عمرو، أيت يكو، تبناست، تغيغاشت)، من جهة الجنوب الشرقي تعد أساسا للتأريخ للحدث[12]. وتفيدنا هذه الدراسة أيضا في الترتيب الكرونولوجي للوقائع. فبعد معركة أيت يعقوب في شهر يونيو 1929، اندلعت معركة مصطريد، وبعدها معركة بادو. وفضلا عن المراجع

المشار إليها أسفله، استثمر الأستاذ بيرون نصا شفويا أمازيغيا، يصف وقائع معركة مصطريد، يبدو من المفيد أن نورده كاملا مترجما إلى اللغة العربية، ليشكل أرضية لمن يبتغي التوسع في مواقف المقاومة الأمازيغية بالأطلس الكبير الشرقي، انطلاقا من معركة مصطريد. ونضيف أن للمجهود الذي قام به الأستاذ بيرون أهمية في التأسيس لمرحلة الكتابة الأمازيغية في أوساط لا تسود فيه إلا الشفهية ولا شيء غيرها.

نظم الأستاذ بيرون دراسته للحدث في خمسة محاور :

- المقدمة.
- الإطار الجغرافي، والبشري.
- معركة مصطريد من خلال حوليات الضباط الفرنسيين.
- الرواية الشفوية حول معركة مصطريد.
- خاتمة.

وذيلت الدراسة بلائحة المصادر، والمراجع، التي استأنس بها الأستاذ بيرون لتوسيع المواقف المضمنة في الرواية الشفوية، بالشرح، والتفسير، والتعليل. وفي ملحق الدراسة النص الكامل للرواية الشفوية الأمازيغية.

لم يغفل الأستاذ بيرون عن ذكر ما أحاط بمعركة مصطريد من صمت مطبق، رغم أنها شكلت واحدة من القضايا التي هزت الرأي العام الفرنسي، وشكل موضوعا للنقاش في قبة الجمعية الوطنية. وليس ذلك بغريب على من يعرف جغرافيا المنطقة التي ينتمي إليها ميدان المعركة، ويفهم العمق البشري لسكانها. ورغم التفاصيل المضمنة في متن نصوص كتاب الحوليات من الضباط العسكريين، فإن الغموض لا يزال يحيط بالأسباب الحقيقية لانتصار أيت حديدو في معركة مصطريد.

فمن بين تلك الأسباب، أن اللفيف الأجنبي الفرنسي (لاليجو بالأمازيغية) أفرط في شرب الخمر عشية[12] يوم 30 أبريل 1933 التي صادفت الاحتفال بذكرى معركة كامرون Camerone، وهو في طريقه لاحتلال تيزي ن إسوال، وجبل مصطريد. ولم يكن اللفيف بالمرة مستعدا وقتها لأية معركة، أو مطاردة. ويرى الأستاذ بيرون أن للظروف الطبيعية التضاريس الوعرة، وسوء الأحوال الجوية، يوم فاتح ماي 1933 دورا غير مذكور في إلحاق الهزيمة باللفيف الأجنبي. ولم يغفل الإشارة، إلى الدور الذي لعبه شريف تلمي في تعبئة سكان أيت حديدو لمواجهة الجيوش الفرنسية.

ولأن الجغرافيا صالحة أولا وقبل كل شيء لممارسة الحرب، كما يقول إيف لاكوست، فصل الأستاذ بيرون القول في الوصف الجغرافي لميدان المعركة، ولطبيعة سكانها ودور رجال الدين في تعبئة هؤلاء لمواجهة الأجنبي، في قلب الأطلس الكبير الشرقي، وفي هضبة البحيرات. تمتد قمة مصطريد من جهة الجنوب «ارتفاع الجبل حوالي m3077 على سطح البحر وهو خزان مائي بالمنطقة[14]. والجبال الأطلسية في هذه المنطقة نتيجة حركة تكتونية معقدة، تارة تمتد بشكل متوازي، وتارة أخرى تتخللها منعرجات. أما مناخها فهو قاس لارتفاع المدى الحراري، ولضعف التساقطات الثلجية والمطرية وهناك شلالات شديدة الاندلاع وخوانق يصعب اختراقها.

استقرت أيت حديدو منذ قرون من الزمان في هذه المرتفعات، وفي قصور محاذية لوادي أسيف ملول وتلمي[15] وهم عرق جميل، شرفاء محاربون ملتزمون بتقاليدهم متشبثون

باستقلالهم، وبذكائهم ،ونبلهم، وأشعارهم، وبساطتهم. يشتهرون ... بأعراسهم الجماعية وجودة صوفهم[16].

وتشكل تلمي أعلى نقطة معمرة بالمنطقة، وهي مركز المقاومة الأمازيغية، والدفاع عن الحرية، والفردية Individualisme ،التي يتشبث بها سكان المنطقة. ويعد سيدي بن أحماد روح المقاومة بالمنطقة. وقد توفق في بعث روح الصمود والانتقام في أوساط قبيلة أيت حديدو. وقد سبق له أن عبأ السكان للمشاركة في معركة أيت يعقوب في يونيو 1929[17]. ويروى عنه أنه كان يقول دوما لأيت حديدو : « كنتم تنتظرون مني البركة وأنا أنتظر منكم الشجاعة» فالبركة وحدها، (أي الكرامة بالتعبير الصوفي الطرقي)، غير كافية لمواجهة الغزو الأجنبي. ولاغرو، فالأمازيغ بالمنطقة كانوا يعتمدون في مقاومتهم على ثنائية « تيكورما وتيبيرما (تيعزيت)»، أي الكرامة والشجاعة. ومن الجانب الفرنسي يرى الأستاذ بيرون أن كل الفيالق الفرنسية، ممركزة على شكل طوابر (Colonnes) في هذه المنطقة[18]، الفرق المتحركة و G.M الكومGoum ، و(اللفيف الأجنبي) La légion ، تبتغي الاستيلاء على هضبة البحيرات. ولقد قدمت من ناحية الشمال الشرقي عبر أنفكو غير البعيد عن التجمع العمراني «تلمي ». وحسب ما نقله الأستاذ بيرون عن كتاب الحوليات من الضباط العسكريين، فإن القيادة العسكرية الفرنسية، كانت تبتغي ابتداء من ربيع 1933[19] السيطرة – على عجل – على كل مجال قبيلة أيت حديدو أو على الأقل ستقلص من حدة التمرد « Dissidence» والانشقاق في صفوف هذه القبيلة المقاومة.

وكما سلفت إليه الإشارة، فإن تحرك اللفيف الأجنبي طالما يصاحبه شق طرق العربات«Véhicules، وإنه بمنطقة أنفكو لا تسمح التضاريس إلا بشق مسلك يطيق مرور عجلة منفردة Auto-cyclabe، ورغم ذلك سيسهل مرور طوابر الجيوش الفرنسية إلى تيرغيست، ويمكنها من الصعود إلى تيزي ن إينوزان. ولحماية الأشغال التي تصاحب على الدوام زحف الجيوش الفرنسية، أو تتقدم عليها تبينت ضرورة السيطرة على جبل مصطريد و تيزي ن إسوال.

هناك ثلاث روايات نقلها الأستاذ بيرون عن كتاب الحوليات. ففي كتاب كيوم Guillaume المبين في الهامش 11 يرى أنه لتسهيل تنفيذ تمديد الطريق (Piste إلى أنفكو عبر تيغدوين، بدا من الضروري السيطرة على تيزي ن إسوال وجبل مصطريد. وتم القيام بهذه العملية يوم فاتح مايو 1933 لكن المنشقين كانوا لجيوش فرنسا بالمرصاد، حيث واجهوا العناصر المكلفة بتثبيت مركز المراقبة «Poste»، وهي رواية لا تحمل سوى توضيحات قليلة إضافية، وهناك رواية ثانية لهذه الوقائع لفوانو(Voinot)، تقول: «تمكنت الفرق المتنقلة G.M القادمة من مكناس من التثبيت بالمكان قبل مطلع يوم فاتح مايو 1933. لكن سوقة عسكرية لواد تلمي قاومت بمصطريد بعنف فأكرهت فرقنا على مغادرة المكان الذي سقط بأيدي المنشقين» بدون خسائر. ومن خلال هذه الرواية، فإن رد فعل أيت حديدو، والتي أصابت الجيوش الفرنسية، والحال أنه في يوم 30 أبريل من كل سنة يحتفل اللفيف الأجنبي بذكرى معركة كامرون، وهو سبب النكبة.

وفي رواية ثالثة، مضمنة في كتاب «تهدئة المغرب» لصاحبه الجينرال Le Géneral Huré هوري (1952,123) La pacification du Maroc، ما يفيد أن الفريق المتنقل G.M القادم من مكناس، احتل ميدانا بجبل مصطريد، وثبت ثلاث نقط للمراقبة، إحداها بالقمة، والثانية بوسط السفح، والثالثة بتيزي ن إسوال. وفي منتصف النهار تغيرت حالة الطقس فقصف الرعد ولمع البرق، ونزل مطر غزير عاصفي، حتم على الجيوش الاختباء خوفا من ضرر الزخة المصحوبة بريح صرصر عاتية وبرد قوي، معتقدين أنهم محميون من هجوم المقاومين... فانخفضت حدة حذرهم ويقظتهم[20]. ويظهر أن الرواية الشفوية الأمازيغية أكثر تفصيلا عما أورده كتاب الحوليات. ومما نقله الأستاذ بيرون عن لسان حارس غابوي، كان انخرط في جيش الكوم(Goum) ينحدر من تونفيت :

« A yenna nella g unafgu tella duziam gum yili karantkat gum g–tirghist, sankyam gum tella g unafgu iddu–d elkunur eha zdgen–d gher tirghist. Neffegh zi tirghist alliy niwed tighedwin-ellan laliju datagh, yali lalizu gher tizi n iswal, tedda lbertiza datasn beâda gher tilmi.

Yali laliju gher tizi iswal, walu lbarud dinnagh.
Hayyagh neqqima dinnagh nag ghifsen lassa xef laliju.
Neqqim dinnagh yallah, yallah, yallah, yallah alliy aghd-ebnan enfedda tansi, alliy maenn ixfawn ensen, ennan-as : « llah ihennikun’-dghi han enfedda tranci ! » kukk diyunnegh ad iayd elkonor ! neqqim alliy tâyd lbartiza enserrehd naayd gher tirghist d’unefgu, ha yayt hdiddu darax fimerra… fimerra ! yallah, yallah tfar-

nnegh alliy nekcem elqecla n tirghist nekkni nekcem elqecla n tirghist karantkat gum. Sankyam gum tayed ger unefgu, innasen Zninnar : « ad-ur-itkzem awd yukk, awd yukk adur-itkzem, ghas lyum ! » hat izza atan, hatin igger lmerri zi leqesla, igger gher tizi iswal, innas : « sayyi feddan lalyu, feddan ayt hdiddu laliyu, ur iqqimi awd yukk » ennas : kjmen ghifsen day ettasi laliju talkurt da igger-tt i ayt hdiddu, asint ayt hdiddu, ddun ibarden ensen.

Iwa, neqqim dinnagh anamez elaadda, da nteddu gher tizi isswal han imettin qqiman mind-ax s-elaadda nsen. Ca usint, ca urt-usin, ca iwdent, ca urt iwden winnax ellanin y uqqesmir qqiman s-elaadda nsen, winnax iwd y unna yuved udar usint »(21).

ترجمة النص إلى الفرنسية من طرف ميشيل بيرون :

La traduction du texte Amazigh :

«Par la suite, on était à Anefgou. C'était le 10eme Goum. Le 44eme Goum était à Tirghist, le 5eme Goum était à Anefgou. La colonne est venu camper à Tirghist. Nous sommes sortis de Tirghist et avons poussé jusqu'à Tikhedwin. Le détachement de Légion qui se trouvait devant nous est monté au Tizi n-Isswal ; les partisans, qui allaient devant eux ont avancé du côté de Tilmi.

Le détachement de Légion est monté au Tizi n-Isswal sans combattre. Pas un coup de feu, tout était calme. Nous les avons rejoints et sommes restés sur place à les garder pendant qu'ils creusaient des tranchées. Nous avons assuré leur protection jusqu'au moment où ils nous ont fait signe comme quoi ils avaient fini les tranchées et qu'ils se

sentaient en confiance. Alors, les légionnaires nous ont congédiés en nous remerciant. Là-dessus, l'ordre est arrivé du général: «Que chacun d'entre vous rejoigne la colonne ! ». Nous avons attendu le retour des partisans, puis nous avons décroché en direction de Tirghist et d'Anefgou. sérrés de près, de très près, par les Aït Hadiddou. Ils nous ont vivement reconduits jusqu'au moment où nous avons atteint le poste de Tirghist. Nous autres, du 44e < Goum, sommes alors rentrés au poste de Tirghist ; le 5e Goum s'est replié vers Anefgou. Le général a ordonné que personne, à part le Goum, ne devait pénétrer à l'intérieur du poste, et il a fait disperser les partisans.
Alors, depuis le poste de Tirghist, il a levé ses jumelles vers le Tizi n-Iswal et s'est écrié : « ça y est ! Les légionnaires se sont fait massacrer par les Ait Hadiddou ! Il n'en reste pas un seul ! ».
Les Aït Hadiddou étaient montés à l'assaut. Chaque fois que les légionnaires jetaient une grenade contre les Aït Hadiddou, ceux-ci la ramassaient et la relançaient de sorte qu'elle faisait explosion parmi les légionnaires, les mettant finalement tous hors de combat.
Les légionnaires anéantis, le «baroud » a fait rage autour de Tirghist jusqu'au moment où on n'y voyait plus clair. Puis les Ait Hadiddou sont rentrés chez eux.
Alors, nous sommes revenus sur les lieux pour récupérer les armes. Nous sommes allés au Tizi n-Isswal. Les cadavres des légionnaires étaient là, devant nous, avec leurs armes. En fait, certains avaient été

dépouillés de leur armes, d'autres pas. Certains avaient été visités, d'autres pas. Ceux qui étaient en terrain escarpé avaient encore leurs armes. Ceux qui étaient en terrain découvert avaient été désarmés.

ولتعميم الفائدة سنترجمه إلى العربية:
(وصلنا أنفكو في وقت لاحق، وهناك تموضعت الفرقة العاشرة من الكوم، وتموضعت الفرقة الرابعة والأربعون بتيرغيست، أما الفرقة الخامسة، من نفس الجيش فقد مكثت بأنفكو.أتى الفيلق (الكونور) ليخيم بترغيست. غادرنا تيرغيست، واستمرنا في سيرنا إلى أن وصلنا تيغدوين. وارتفع فيلق اللفيف الأجنبي(لاليجو) الذي كان معروضا علينا ليصل تيزي ن إسوال. وأما جيش الأنصارles partisans) الذي ذهب قبلهم فقد تقدم نحو تيلمي.
صعد اللفيف الأجنبي إلى تيزي ن إسوال، حيث تسود الهدنة هناك. مكثنا، وانضممنا إليهم وبقينا في الموقع منظمين الحراسة لمراقبتهم، بينما كانوا يحفرون الخنادق استمر حالنا على ذلك حتى تأكدنا من حمايتهم، لما جعلوا إشارات تدل على أنهم قد انتهوا من حفر الخنادق، وكنا واثقين من أنهم شعروا بأنهم حفروا الخنادق التي تكاد تخفي رؤوسهم، وأحسوا باطمئنان. ثم أن الأمر جاء من الجينرال: « دعونا كل واحد منكم للانضمام الى الكونور. انتظرنا عودة جيش الأنصار، ثم سرنا في اتجاه تيرغيست». مكثنا هناك إلى أن عاد جيش الأنصار ثم نزلنا إلى تيرغيست، وأنفكو، لندرك أيت حديدو خلفنا، ضغطوا بشكل وثيق، عن كثب وقد كادوا يلتحقون بنا بسرعة فائقة وتبعونا حتى دخلنا محطة تيرغيست، نحن الفرقة رقم44، بينما الفرقة

الخامسة عرجت نحو أنفكو. أمرنا الجينرال بأن لا أحد يدخل المعسكر، سوى فرق الكوم، وقد تمكن بذلك الأمر من تفريق جيش الأنصار.

ومن محطة تيرغيست أثار منظاره إلى تيزي ن إسوال فصاح:(انتهى الأمر!كل أفراد اللفيف الأجنبي، ذبحوا من طرف أيت حديدو، ولم ينج واحدا منهم). فكلما رمى اللفيف الأجنبي قنبلة إلى أيت حديدو يقوم هؤلاء بجمعها وإرجاعها إلى اللفيف، فتنفجر القنبلة بينهم، إلى أن وجد أفراد اللفيف أنفسهم خارج المعركة. لقد تم تدمير كل أفراد اللفيف. واحتدم البارود حول تيرغيست بعض الوقت حتى أننا لم نتمكن من رؤية واضحة، وبعد ذلك انقلب أيت حديدو على عقبيهم عائدين إلى أرضهم. ثم عدنا الى مكان الحدث لاسترداد الأسلحة. وبعد ذلك ذهبنا إلى تيزي ن إسوال، وهناك وجدنا جثث الفيلق معروضة علينا، مع أسلحتهم، البعض منها تمت زيارتها، والبعض الآخر نجا من ذلك. فأولئك الذين كانوا في منطقة ذات تضاريس حادة، لا تزال لديهم أسلحة. وأما أولئك الذين كانوا في أرض منبسطة مفتوحة، قد تم نزع سلاحهم.

يتأكد من هذا النصن أن قبيلة أيت حديدو تدافع عن مجالها الوظيفي. لذلك لم تحاول القيام بالهجوم على الجيش الفرنسي، ولم تفكر في الزحف نحو الأمام، رغم تحقيق انتصارها في معركة جبل مصطريد.

الحواشي:

1 - روس إ. دان، المجتمع والمقاومة في الجنوب الشرقي المغربي، المواجهة المغربية للإمبريالية الفرنسية

1881،1912، ترجمة أحمد بوحسن، مراجعة عبد الأحد السبتي، منشورات زاوية، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 2006 ص 272.

2 : المرجع نفسه. ومن المفيد إيراد النص الفرنسي كاملا :

« Louange à Dieu unique
Que la prière et le salut
soient sur notre Seigneur le Prophète de Dieu
- Au chef de la fraction des français à Boudnib
- Que le salut soit sur ceux qui suivent la vie droite, ceux qui s'humilient devant le Dieu miséricordieux et cherchent la justice.
- Sachez que, depuis votre arrivée dans le Sahara, vous avez maltraite les faibles musulmans.
Vous êtes allés de conquête en conquête. Votre âme noire s'est jouée de vous en vous faisant courir à votre perte.
Vous avez fait souffrir à nôtre pays un mal intense, dont nous avons gouté l'amertume semblable à celle de la coloquinte.
Les magnanismes guerriers musulmans viennent vers vous, armés pour votre destruction.
- Si vous êtes en force sortez de vos murs pour le combat ; vous jugerez quel est le plus noble de la chouette ou du faucon.
- Désignez l'heure et l'endroit propres à la rencontre des braves.

- Nous vous avons écrit ceci, car telle est la coutume suivie par nos ancêtres valeureux avec vos vils ancêtres.»

النص أورده محمد المعزوزي وهاشم بن الحسن العابدي في الكفاح المغربي المسلح في حلقات من 1900 إلى 1935، مطبعة الأنباء، الرباط، 1937 ص18.

3- الكفاح المغربي المسلح ص19.

4- انظر الموقع التالي:

http://www.agourai.com/viewtopic.php?f=102&t=763&start=0&view=print

5 - محمد المعزوزي، هاشم بن الحسن العابدي العلوي، الكفاح المغربي المسلح في حلقات من 1900 إلى 1935، مطبعة الأنباء، الرباط، 1987 ص 184

6- د. محمد زنيبر، صفحة من المقاومة المغربية إثر حرب الريف سنة 1926 من خلال نص أجنبي، ندوة المقاومة المغربية ضد الاستعمار، 1904-1955، أكادير 13-15 نونبر 1991، نشر المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، مطبعة كانابرانت، الرباط، الطبعة الثانية 2008 ص 179.

7 - المرجع نفسه.

8 - المرجع نفسه.

9 - المرجع نفسه ص 180.

10 - المرجع نفسه.

Michaël Peyron. Un regard nouveau sur le combat 11 du Msedrid (Premier Mai 1933), Hesperis Tamuda, vol

XXVI-XXVII-Fascicul unique 1988-1989 pp 197-206.
Les ouvrages cités par Peyron :12
- Guennon, (S), La montagne berbère, Rabat, Omnia, 1929.
- Guennon, (S), La Voix des Monts, Rabat, Omnia,1934.
- Guillaume, (A), Les berbères marocains et la pacification de l'Atlas central. 1913-33, Paris, Juliard, 1946.
: - Huré, (A), La pacification du Maroc, dernière étape 1931-34, Paris, Berger-Levrault, 1952.
- Janan, (R), Les Salopards, Alger, Edmond Charlet, 1941.
- Soulay, (J), Histoire des Goums marocains, Paris, La Koumia, 1985.
- Voinot, (L), Sur les traces glorieuses des pacificateurs du Maroc, Paris, Charles Lavauzelle, 1939.
- weygand, (J), Goumier de l'Atlas, Paris, Flammarion, 1954.
12-Ibid.
13 - وقعت بين اللفيف الأجنبي و الفيالق المكسيكية يوم 30 أبريل 1863، فقد فيه اللفيف المذكور نصف عدد
Cameroneمعركة كامرون . أنطر كذلك:
www.wikipedia.org
14Michaël Peyron op-cit p 198.
15-- Ibid.
16- Ithem
17- Ibid.

-18 - Op-cit p 199
19- Op-cit p 200
20- OP-cit p 201.
21- Op-cit p 206

«السونتات» بين حسن الطبيعة وبؤس الذاكرة

للقرية الزراعية «السونتات» دلالات مترابطة فيما بينها ترابطا نسقيا، الدلالة اللغوية، والدلالة البيئية، والدلالة الاستراتيجية والدلالة التاريخية لعلاقتها بذاكرة الانتهاكات الجسيمة لحقوق الإنسان. ولم تكن الصدفة هي التي أنشأت هذا الترابط الفريد من نوعه بجبال الأطلس الكبير الشرقي، فهناك عناصر طبيعية متنوعة، الموقع، والمناخ، والهيدرولوجيا، وعناصر بشرية في عمقها التاريخ، هي التي ساهمت في صنع النسق السوسيو ثقافي «السونتات»، الذي لا يزال يحافظ على نسقيته، وتماسكه، رغم الهزات العنيفة التي زلزلت أركان القرية، وفتحت أمامها أبواب الزيغ، والانحراف.

لا نبتغي أن نجعل من السونتات مركزا لإنشاء ذاكرة قبيلة أيت حديدو. فهناك مراكز أخرى ذات قيم مضافة، مثل مركز أكدال والتجمع القروي تيلمي ومركز إملشيل. غايتنا أن نعامل السونتات بنوع من الميز الإيجابي لأنها مسقط المرحومة فاضمة أوحرفو ومنطلق أحداث مارس 1973.

نعتقد أن استرسال الحديث كثيرا في موضع السونتات سيشق على قبيلة أيت حديدو التي تعتمد العدل في الاستفادة من خيرات الطبيعة، والمساواة في الدفاع عن المجال الوظيفي، وأملنا ألا نتجاوز الحد في المبالغة في ذكر هذا الطرف، والتغافل المفرط في نسيان طرف آخر.

1.الدلالة اللغوية للقرية:

تتركب الكلمة الأمازيغية «السونتات» من مقطعين اثنين «سو» أي «تسو»، «Tsu» و«نتات»، «Nettate»، فالمقطع الأول «تسو» يعني «لتشرب» على قياس فعل مضارع دال

على الأمر، العامل فيه لام الأمر الداخلة عليه، وهو في الصرف على صيغة المفرد الغائبة، والمقطع الثاني «نتات» يعني هي وهم بمثابة الضمير المنفصل. ومن يرغب في الترجمة الحرفية لكلمة «السونتات» سيقول «لتشرب هي».

ولأن الأمازيغية كلماتها تبنى في الغالب على أساس وظيفي، فإنه من الضروري أن نتساءل: «لماذا أطلقوا على القرية هذا الاسم؟ وبعبارة أخرى ما هو الأساس الوظيفي لتركيب العبارة «تسو-نتات»؟.

هناك رأي يقول إن القرية تتوفر على ثلاثة موارد الماء «الوديان»، أسيف ملول، أقان سونتات، تافغولت، أي أنها – السونتات- متوفرة المياه.

وهناك رأي يفيد أن القرية تستفيد من التساقطات المطرية الغربية، والتساقطات الشمالية الغربية والجنوبية على السواء. والمقصود بالتساقطات الجنوبية، في اعتقاد السكان المحليين، تلك القادمة من الجنوب أو الجنوب الشرقي. فحينما يدخل الاضطراب الأجواء المغربية فإنه يقدم أحيانا من جهة جزر الأسور فيسبب نزول أمطار يراها سكان الجنوب الشرقي المغربي أنها قادمة من الشمال الغربي، أو يقدم من جهة جزر الكناري فيسبب أمطار غالبا ما يستفيد من رحمتها كل الجنوب الشرقي. ولأن هذه الأمطار تتوغل شرقا بمحاذاة الانكسار الجنوب الأطلسي فتغشى جزء كبير من جبال الأطلس الكبير الشرقي لقلة ارتفاعها. لذلك يخالها السكان المحليين قادمة من الجنوب الشرقي.

وبالمقابل، طالما تكون الأمطار قادمة من التراب الجزائري فتسلك من جهة الشرق مقعرات الأطلس الكبير

الشرقي. ويعنينا أن الاضطرابات الجوية التي تدخل المغرب، من شماله، وشماله الغربي، وغربه، و جنوبه « في الاعتقاد المحلي » تتوقف غيومها عن السير لما تبلغ سماء « سونتات». فقرية « سونتات »، من هذا المنطلق، حد فاصل بين المطر الجنوبي الصحراوي القادم من البحر من جهة أكادير، أو من التراب الجزائري من جهة الشرق، وبين المطر الشمالي الغربي القادم من جهة جزر الأسور، فالقرية السونتات تستفيد من التساقطات المطرية، كلما دخلت الاضطرابات الجوية سماء المغرب[1].

2.الدلالة الوظيفية والاستراتيجية:

لما كان سماء السونتات يحتل وسيط السماوات، حسب اعتقاد السكان المحليين، فيسقى من كل سحاب يدخل سماء المغرب، أو بالأحرى سماء الدنيا، فإن أرضها تحتل وسط المجال المعمر لقبيلة أيت حديدو بواد أسيف ملول. ففي أعلى الواد جنوب شرق «السونتات» توجد ثمان قرى، هي على سبيل الحصر والترتيب، من الأعلى إلى الأسفل: أكدال، تيماريين، أقديم، أيت عمرو، تمستيرت، ألمغو، بوزمو، تيسيلا.

وفي أسفل الواد شمال غرب «سونتات»، تتموضع ثمان قرى أخرى، هي على سبيل الحصر والترتيب، من الأعلى إلى الأسفل: إحوطين، أيت علي ويكو، موتزلي، إملشيل، إيبوخنان، أمردول أوراغ، علي اوداود، أوددي. سبعة عشر قرية على طول واد أسيف ملول، تتوسطها قرية «سونتات». لا جرم أننا استثنينا ذكر بعض القرى، تباشطينتن توربطيت، إمي ننقات،

أيت الغازي، بوتغبالوت. لم نذكرها عن تغافل لأننا نخالها جزءا من تجمع قروي متجانس. فإملشيل يشتمل على القرى التالية، بوتاغبالوت، أيت الغازي، أيت توشنت، أيت الشيل، ونرى توربطيت جزءا من المجال القروي بوزمو، وتظهر تباشطينت ملحقة للتجمع القروي أيت علي وبكو، وأما إمي نتقات فهي امتداد للتجمع القروي علي اوداود. ولم نذكر عن تغافل القرى الواقعة على ضفتي واد تلمي، أيت يكو، أيت عمرة، تبناست، تغيغاشت.

ولأن «السونتات» تحتل موقعا وسطا بواد أسيف ملول، فقد اختيرت في زمان يصعب تحديده ميدانا للتسويق بواد أسيف ملول. ولا يزال موضع «تغروت ن السوق» المتنازع عليه الآن بين بعض العشائر شاهدا على الماضي الاقتصادي للقرية الذي دام إلى عشية وصول المستعمر.

3.الدلالة التاريخية والحقوقية للقرية.

للقرية «السونتات» بعدان، البعد التاريخي، والبعد الحقوقي. كلا البعدين جعل القرية تحظى بشهرة واسعة بالجنوب الشرقي المغربي.

كانت القرية، من قبل، تحتضن ميدانا للتسويق بالمنطقة، ثم أضحت من بعد ساحة لأحداث مارس 1973 المعروفة بأحداث السونتات. ومع تأسيس هيئة الإنصاف والمصالحة ظهرت «السونتات»، كواحد من مواطن جبر الضرر الجماعي بإقليم الرشيدية لا يقل أهمية عن موقع «تزممارت» وموضع «أملاكو» وقصر «دوار» «إكلميمن» والمجال العمراني المحيط بالسجن السري الكائن بمقر قيادة كرامة. وبوقع معاناة المرحومة فاضمة أوحرفو اكتسبت «السونتات» بعدا نوعيا إلى

جانب البعد الخاص بحفظ الذاكرة فاختارتها «اليونيفيم» «UNIFEM» صندوق الأمم المتحدة الإنمائي للمرأة» مجالا لتنفيذ واحدا من مشاريعها في إطار برنامج جبر الضرر الجماعي، الذي يسهر على تنفيذه المجلس الاستشاري لحقوق الإنسان.

وليس من السهل الإحاطة بالبعد التاريخي للقرية لغياب المادة التاريخية المكتوبة، وبالمقابل ليس من الصعب الإحاطة بالبعد الحقوقي الجماعي للقرية، إلا أن هذا البعد لا يزال ينتظر الكثير من المنجزات، لتكتمل صورته، ويتضح وجهه.

ولإلقاء نظرة على صورة القرية، نعتمد على بعض الشهادات المضمنة في الغالبن في مراسلات وجهت من قبل إلى هيئة التحكيم المستقلة، ومنها ما وجه من بعد إلى هيئة الإنصاف والمصالحة.

ففي إحدى العرائض الموجه إلى هيئة التحكيم المستقلة، تظلم أسرة مما فعلته القوات المختلطة، القوات المسلحة والقوات المساعدة، ورواد الطيران، التي نزلت أرض السونتات في مارس 1973، وانتزعت من هذه الأسرة طاحونة تشتغل بالديزيل لتحويل بنايتها إلى مخفر التعذيب. وتستشهد بشهود لقوا أشد العذاب بتلك البناية وهم:

*موحى أوعلي فرحان.

*رقية أوحزي.

*رابحة زايد تاخييت.

*مرو همي.

*زايد أو باسو وبنها.

*زايد أوحرفو.

*فاطمة زايد.
*فاضمة أوحرفو.
وكل هؤلاء ينحدرون من السونتات، وهناك من جيء بهم إلى القرية ليعذبوا فيها، قبل نقلهم إلى إحدى المقاهي بقصر «دوار» بوزمو وهم:
*مولاي امحمد الساكن بقصر يطو فزو بجماعة أيت هاني.
*احساين أوهاجو الساكن بقصر (دوار) أكدال.
*موحى أو زايد أوحيناد الساكن بقصر أكدال.
*المدعو أو الطالب الساكن بقصر يحيى أو الصغير[02].
وفي عريضة أخرى ذكر لمعتقلين آخرين لا ندري ما إذا كانوا عذبوا بأرض السونتات، وهم:
*زايد أوباسو نايت زيبو.
*موحى أوحدو نايت بزندي.
*زايد أوحدو نايت بزندي.
*رابحة أوحرفو.
*عيشة أوحرفو.
*علي أوحرفو.
*حدو أيت بزندي.
*رابحة أيت بزندي.
*يطو أيت بزندي.
*باسو أيت بزندي.
*إيطو أيت خويا.
*زهرة أيت خويا.
*هنو أيت خويا.

*حادة أيت خويا.
*باسو أوزايد نايت زيبو.
*احساين أوزايد نايت زيبو.
*موحى أوزايد نايت زيبو.
*عيشة أوزايد نايت زيبو.
*رابحة أوزايد نايت زيبو.

وقد تمكنا من الحصول على لائحة تشمل ثلة من المعتقلين تربطهم بالسونتات علاقة قرابة، تقوم على الدم أو على الأرض أو على التعذيب بقضبان شجرة عود الماء. وهؤلاء هم :

*موحى أوحمامو من قصر«دوار» أيت هاني.
*باسو أوعلي أوتعدوت من قصر «دوار» تيدرين بمنطقة أيت هاني.
*سيدي حدو أفضيل من قصر «دوار» أغبالو ن كردوس بفركلة العليا.
*موحى أدحو، قصر «دوار» تغيغاشت، بمنطقة إملشيل.
*المدعو حستي قصر «دوار» تغيغاشت المذكور.
*هونا أوحرفو، قصر «دوار» تغيغاشت.

ونضيف أن قرية السونتات قدمت ثلاثة شهداء:
*المرحوم سعيد أوخويا.
*المرحوم موحى أوحرفو.
*المرحومة فاضمة أوحرفو.

فالأول والثاني حكم عليهما بالإعدام والمرحومة فاضمة أوحرفو توفيت بسجن أكدز السري سنة 1976.

4.البيئة والذاكرة:

من السهل إيجاد رابط بين البيئة والذاكرة في الوسط الجبلي الذي تعرض من قبل لما يسمى بالانتهاكات الجسيمة لحقوق الإنسان ففي البيئة المحلية تذكارات لا تزال تذكر بأحداث مارس 1973. فهناك في جبل أملو نايت يعزة «أبوهون موحى وحرفو» أي كهف موحى وحرفو، نسب إليه لأنه كان يلجأ إليه منذ أيام الحماية الفرنسية. وهناك جبل «أزيلال ن تفغولت» الذي اختبأ فيه سعيد أوخويا. فطبيعة تضاريس المنطقة توفر تذكارات متنوعة لا تزال شاهدة على الحدث.

ومن المفيد التعريف بهذه التذكارات، وربطها بالذاكرة والتاريخ، ليضمن لها الاستمرار في الزمان. ومما يذكره جيدا المعذبون في بناية المطحنة، أو في مقهى بوزمو، هو قضبان شجرة عود الماء الكثيرة أفرادها بواد أسيف ملول عامة، وبمنطقة السونتات خاصة. ومن المفيد الوقوف قليلا عند هذه الشجرة[2].

يطلق على عود الماء بالأمازيغية «تيسملل»، وهي كلمة مشتقة من البياض «تمللي» الذي يغشى جدع هذه الشجرة وأغصانها. ويطلق على الشجرة أيضا «تافساست»، وهي كلمة ذات ارتباط ب «تافسي» أي الرقة والخفة. ويعرف عن قضبان عود الماء رقتها وخفتها.

وترتبط الكلمة «تافساست» أيضا بالكثافة والازدحام «يوفس» أي ملأ وحشا. ولا عجب فالشجرة عود الماء تتواجد في الطبيعة على شكل أعشاش، وكيفما كانت المواصفات التي تحملها التسمية فعود الماء نبات الأطلس الكبير الشرقي، يشتهر

بها واد أسيف ملول، دخل التاريخ لما وظفت قضبانه في تعذيب المعتقلين في مارس 1973. ينبت عود الماء جنبات المجاري المائية الجبلية، وفي قعر الشعاب وأسرة الوديان بعيدا عن شماريخ الجبال وسفوحها. إنه نبات معروف بقلة نفعه وفوائده، لا ثمار له ولا علاقة له بثقافة المنطقة من حيث الرمز والقيمة، رغم توظيفه في الطوبونيميا لما أطلق على إحدى قرى السفح الشمال الشرقي لجبل العياشي «تافساست».

ويعرف عن عود الماء أيضا، أنها نبتة مطاوعة رطبة تطيق الالتواء قادرة على مقاومة السيلان الجبلي. تنظم المجاري المائية وطالما تسبب تغيير مجرى واد أسيف ملول وهو من نوع «لمياندر» «Meandre».

تقوم النبتة ببناء البيئات المتدهورة بفعل الانجراف الناتج عن التعرية النهرية. ولأن النباتات عبارة عن أعشاش كثيفة، فطالما تغمرها الإنسيابات الوحلية، والطينية، وبوغ العود وأجزاء من جذوره فيشكل ذلك بيئة لنمو غلاف نباتي دغلي يستقبل الذبال والطمي والدود والبكتريا، وهي مواد كلها رئيسية في نمو التربة أو التترب La pédogenèse الذي يغطي بعد حين من الدهر ثنايا واد أسيف ملول، ويعمل على دمجها في الشريط الوظيفي. فالذي يقوم به الفلاح يكمن في اجتثاث نبتة عود الماء لتحل محلها حقول خصبة. وبمعنى آخر، يساعد عود الماء الفلاح على استرداد ما جرفه النهر، منذ عقود واليوم يساعد على استرجاع ما ضاع من ذاكرة سنوات الجمر والرصاص.

يشكل عود الماء شريطا بيئيا أخضر يزين جنبات واد أسيف ملول، لكنه لم يعد يحيي بصر أحد لما استعمل في تعذيب المعتقلين.

5.**المعمار والذاكرة.**

لئن كان المعمار بالقرية الزراعية السونتات، يعبر عن مجتمع عشائري، بحيث نجد أن لكل عشيرة قصبتها، أيت خابوط، أيت همي، ... فإن أحداث 1973 المعروفة محليا بأحداث السونتات، سلطت الأضواء على بعض البنايات.

فهناك منزل المرحومة فاضمة وحرفو زوجة المرحوم زايد أوبا الذي هو عبارة عن الأطلال، طوقه الجنود والدرك بحثا عن المرحوم سعيد أوخويا الذي اختبأ به، في فجر يوم من أيام مارس 1973.

والمنزل كذلك في موضع لا يزال يشهد على الحياة القروية بالقرية السونتات في السبعينات من القرن الماضي، حيث يظل على ممر يؤدي إلى إحدى قنوات الري. وحسب الرواية الشفوية، فقد خرجت المرحومة فاضمة وحرفو قبيل طلوع الشمس لجلب الماء من الساقية، وفي رجوعها ألفت السيد سعيد أوخويا جالسا بجانب موقد النار، والتمست منه أن ينصرف لكي لا تمسها نار التعذيب والاعتقال ولما رفض أخبرت أخاه لكي يقنعه بالخروج من القرية، وبدل أن يعمل ما طلبته منه المرحومة فاضمة أوحرفو اتجه إلى الدرك ليخبرهم بمكان اختباء أخيه سعيد أوخويا. ويعنينا أن منزل فاضمة أوحرفو في حاجة إلى إعادة بنائه ليظل شاهدا على الحدث.

ينتظم البناء في القرية الزراعية السونتات على شكل قصبات مغلقة متأثرة، إلى حد بعيد، بقصبات الجنوب الشرقي.

الهوامش:

1- لحسن أيت الفقيه، قرية السونتات، مناخ رطب وماء عذب وعيش صعب وأهوال التخلف تأتي من كل حذب وصوب، جريدة المنظمة، العدد 51، الخميس 31 يوليوز 1997.

2- يعرف موحى أوعلي فرحان أيضا بموحى أوعلي أورير. وأما رابحة زايد تاخييت فهي أرملة المرحوم سعيد أوخويا. وأما رقية وحزي فهي رقية وموحى وحزي أرملة موحى وحرفو. والاسم الحقيقي لفاطمة زايد فهي فاطمة زايد توحرفيت أرملة المرحوم موحى وحدو. وأما المكان الذي عذبوا فيه فهو في ملك عبد القادر ساعد وأخيه باسو.

3- للمزيد من التفصيل، أنظر لحسن أيت الفقيه، عود الماء نبات مهدد بالفناء بفعل يد الإنسان لا بقلة الماء. جريدة المنظمة، العدد: 378، 1992/08/19.

أعلام التصوف والمقاومة والفن من قبيلة أيت حديدو

لما كانت الذاكرة الفردية مقدمة على الذاكرة الجماعية على مستوى القياس، لأن الفرد جزء من الجماعة، وهو الذي سيساهم في نشأتها ويضع أسس نسقها الثقافي العام، ويحترم ما وضعه أسلافه من طقوس قابلة للتكرار وغير قابلة للتعليل والتجديد، فإن عملية التذكر الفردية لا يمكن أن تنشأ إلا ضمن إطار معين. فالمجتمع هو الذي يخضع الأفراد لعملية الأنسنة ويعرضها للتطور على المستوى الاجتماعي sociogenèse الذي يقابله التطور على مستوى الذات والفرد ontogenèse. وبتعبير الفيلسوف الفرنسي موريس هالبواكس Maurice Halbwachs أول من ربط التذكر الفردي بالإطار الاجتماعي. فالإطار الاجتماعي الذي تصنعه ثقافة مجتمع ما، سيسهر على وضع نسق جمعي، يجعل الخبرات الفردية قابلة للتذكر. ومعنى ذلك فاسترسال الحديث عن الذاكرة الجمعية لا يختلف عن تفصيل القول في الذاكرة الفردية لأن لكلتا الذاكرتين معنى واحد. وعليه فالحديث عن الأفراد الذين قدموا شيئا للجماعة التي ينتمون إليها بتضحياتهم بالمال والوقت والنفس، يعني في نهاية المطاف الحديث عن الذاكرة الجمعية، التي تعد جزءا من ثقافة المجتمع. فالشاعر يفكر وفي ذهنه النسق الثقافي للقبيلة (الجماعة) التي ينتمي إليها، يوظف لغة الجماعة ذاتها في قصائده الشعرية، بحمولتها الثقافية المضمنة في المفردات والعبارات، ويعلن نفسه حارسا للحدود، يكره المكروه ويؤكد

إباحة المباح ويأمر بأوامر القبيلة. والمقاوم المتشبع بقيم الجماعة التي ينتمي إليها والتي تجعل الأرض – في أوساط أيت حديدو – في مرتبة الأم، والدفاع عنها جزء من كرامة الفرد والجماعة، يعيد إنتاج الذاكرة الجمعية ويؤكد قوتها والمتصوف الطرقي الذي يعبد الله انطلاقا من قوة المحبة لا الخوف والطمع، يعطي الثقافة المحلية بعدا آخر أساسه الثقة بالنفس مدخل لمقاومة العدو الذي يستهدف تخريب النسق الثقافي للقبيلة.

سنقدم بعض البورتريهات لأشخاص مختلفين دون ذكر التفاضل بينهم إن كان هناك تفاضل. ويراودنا الأمل ألا يعتبرنا أحد متجاوزين الحد إن أهملنا ذكر شخصية ما عن غفل لا عن تغافل.

1- سيدي بن أحماد نايت سيدي :

سيدي بن أحماد نايت سيدي كما يتبين من اسمه عظيم قبيلة أيت حديدو من شتى الجوانب.

فهو الزعيم الحربي لخوضه معارك كثيرة ضد الخميس الاستعماري الفرنسي بأرض إملشيل، وكان النصر حليفه على الدوام. شارك في تافيلالت إلى جانب المدعو مولاي امحمد ومحمد بلقاسم النكادي ابتداء من معركة البطحاء سنة 1922 ومعركة زاوية سيدي بوكيل سنة 1922. وخاض معارك بتونفيت لنصرة قبائل أيت علي أوبراهيم التي قاومت الغزو الفرنسي بمنطقة تونفيت حوالي 12 سنة. والتحق ليخوض إلى جانب المقاومين، بمنطقة تيرغيست القريبة من مسقط رأسه تيلمي. ويعد واحدا من أبطال معركة تاوجيمت ن عري. وباختصار فالبطل سيدي بن أحماد قائد حربي بجبهات القتال

إلى جانب شقيقه سيدي المقدم زعيم القيادة السياسية وصاحب الخطط والرأي.
لم يتردد البطل سيدي بن أحماد في تحريض أيت حديدو على القتال ومواجهة جيوش الاستعمار. ولقد قال في ذلك الشأن قولا مشهورا: « لو خيرني أحد بين قبول الاحتلال الفرنسي وبين ذبح أفراد قبيلة أيت حديدو كلهم أجمعين. سأكون أول من يذبح منهم. فالفناء خير من البقاء تحت قوة الاحتلال والاستكبار والاستعلاء ».

ويعد سيدي بن أحماد زعيما روحيا لاعتناقه التصوف على طريقة زاوية سيدي بويعقوب. وهو زاهد في حياته ناسك متعبد يجاهد نفسه ويكابدها ليقضي على كل نزعة إلى ملذات الحياة الدنيا في نفسه. وهو مرب حكيم رفض الاستعمار لأنه حسب تصريحه سيترك آثاره السلبية على الأجيال اللاحقة، سيشربون الخمر ويلعبون القمار ويحبون المال ولا يدرأون الفساد والتفكك الأخلاقي. ومن الغريب أن سيدي بن أحماد لا يقبل اللقب «سيدي». ويقال عنه أن أحدهم ناداه : «يا سيدي» فأجاب «لا أنا سيدك ولا أنت سيدي الآن. فالسيد الحقيقي في هذا الوضع المتأزم، هو من يضع أصبعه على الزناد في جبهة القتال لمحاربة الاستعمار وقوى الاحتلال».

ويقال عنه أيضا أنه واقعي في خططه الحربية مؤمن، باختصار بأن الحرب خدعة. ذلك أنه لما اقترب المستعمر الفرنسي من موقع تيلمي خطط سيدي بن أحماد لمباغتته بناحية تيرغيست بحيث سيعترض أفراد من أيت حديدو سبيله لما يشرع في الإنزال بوسط قبيلة أيت عمرو. وفضل السيطرة على المورد الوحيد للماء لأن استراتيجية الجيش الفرنسي احتلال

موارد المياه قبل السيطرة على النقط العمرانية. وعند ذلك ستهزم جيوش الاحتلال. لكن المقاومين من قبيلة أيت حديدو سألوه أن يدعو ربه أن يهزم جيوش الاحتلال. لذلك نعتهم سيدي بن أحماد بالتعساء ونعت نفسه بكبير التعساء. لماذا ؟ لأن قبيلة أيت حديدو تعتقد فيه الكرامات، الكرامات غير الموجودة وهو ينتظر فيهم الشجاعة، الشجاعة المفقودة.

ولاغرو، فالبطل سيدي بن أحماد قاتل حتى الشهادة، حيث استشهد بترغيست. وقيل إنه عندما قتل أمر مسؤول فرنسي بإحضار جثته. فربطها بفوهة المدفعية الثقيلة ليشتتها إلى أشلاء تشويها له على ما فعله بالفرنسيين. وبدل أن تقصف المدفعية وتشتت الجثة انفجرت وقتل من جنود الاحتلال حوالي 12 جنديا وظلت جثة سيدي بن أحماد سليمة. فأمر الضابط الممتاز بدفن الجثة على الطقوس الإسلامية وتم ذلك.

يوجد قبر سيدي بن أحماد بالقشلة قرب تيرغيست. وحدث بعد استشهاد سيدي بن أحماد أن تأهبت قبيلة أيت حديدو لمحاربة المستعمر الفرنسي بجبل بادو وحمدون. لكن المستعمر الفرنسي كعادته نهب خزانة سيدي بن أحماد، وفرض الإقامة الجبرية على سيدي لمقدم مدة 15 سنة إلى أن توفي سنة 1948.

2- المقاوم باسو أورحو الملقب ب « سنو »

يعتبر باسو أورحو الملقب ب «سنو» SENNU من أبرز المقاومين بقبيلة أيت حديدو. وكان ضمن المجموعة التي اعترضت سبيل الاجتياح الفرنسي لحوض أسيف ملول، عند قدومه عبر أعالي زيز من منطقة أوتربات. وعرف عنه أنه قناص العدو بامتياز. لا يخطيء الهدف ولا يخشى الموت، ولا

يتراجع في ساحة المعارك، فهو بطل صامد في الميدان ثابت على المباديء، يدعمه أصحابه علي أوحمو أومحدو، إهيوش، أوخبزة، أكرو ...
ينحدر من قرية أقديم أقدم قرية تنشأ بواد أسيف ملول إثر إخراج أيت عطا منه بعد معارك طاحنة.

استشهد « سنو » بمعركة أزغار إيرس الذي يعد حدا فاصلا، أو بالأحرى، مقسم الماء بين واد زيز وواد أسيف ملول. ولم يخل الميدان من ريح المقاوم سنو حيث حمل ابنه موحى السلاح رغم حداثة سنه ليأخذ الثأر ويفدي والده ويدافع عن مجال قبيلة أيت حديدو. قاتل الولد جيوش الاستعمار الفرنسي بأزغار إيرس، وبإزكزاون، وأكني حتى نفد رصاصه، واستنفدت قواه، فألقي عليه القبض يوم استشهد رفاقه بموقع أكني قرب أقديم.

ومن بين رفاق موحى وسنو، نجد علي أوحمو ومحدو، أوعديش نايت واغاط، أكرو... ويشهد لهؤلاء الشهداء أنهم كبدوا الفرنسيين خسائر كبيرة في الأرواح و العتاد. ويقال عن أكرو أنه يقصف بدقة متناهية، ويقول عند القصف: « تلكم من أكرو» وكان اختبأ في كهف ضيق، وكل من اقترب منه يسقطه أرضا، حتى أتاه أحدهم من فوق الكهف، فأجهز عليه بقنبلة يدوية ليسقط شهيدا.

بعد استشهاد المقاوم «أكرو»، ظل المقاوم موحى وسنو وحيدا أسيرا في قبضة جيوش الاحتلال. ويقال إنهم سألوه ذات يوم : «ما رأيك الآن ؟ هل استسلمت ؟ قال لا. لم أستسلم ولن أستسلم» فقال له الفرنسي : «ارفع رأسك لتنظر إلي». قال له موحى وسنو : «لن أنظر إليك إلا من على البندقية» جدد

الضابط الفرنسي أمره للمقاوم موحى : «انظر إلي واستسلم وإلا سنسوقك إلى سوق قرية بوزمو ليتعلم الجنود الفرنسيين الرماية على رأسك»، رد عليه المقاوم موحى وسنو : «افعل ما تريد سوف لن أنظر إلى وجهك». جيء به إلى مركز بوزمو يمشي منتصب القامة ضخم الهامة، فأمر الضابط الفرنسي المدعو خرميز بإعدامه رميا بالرصاص. وكان العميل خرميز طويل القامة أسود اللون غليظ القلب والبدن، وظفته سلطات الحماية الفرنسية جلادا للأسرى بسجن بوزمو، لينفذ الإعدام فيمن رفض الاستسلام، مثل موحى وسنو المذكور، وبيوش، من قرية أيت علي ويكو.

3- المقاوم علي أوحمايو

علي أوحمايو المنحدر من قرية تيماريين، من أشد المقاومين صلابة. شخص شجاع لا يعرف الخوف ولا يتراجع إلى الوراء في ساحة الوغى. يفرح ويسعد كلما دعي إلى قتال جيوش الاحتلال الفرنسي. قيل عنه، إنه يقاتل وهو ضاحك مسرور يقصف باليد اليسرى لا اليمنى، لذلك قلما يخطيء الهدف.

روى عنه المدعو ساقل ابن قريته ورفيقه في مقاومة المستعمر، أنه أتى الموضع أزغار إيرس قادما من تيوورا مقسم الماء بين زيز وأسيف ملول فوجده – أوحمايو – غير بعيد عن قنطرة عدريش ممددا على الأرض زاحفا كالثعبان نحو جيوش الاحتلال، واضعا أصبعه على الزناد مترقبا تحرك الجيش. ولما لمح أحدهم أسقطه أرضا بسرعة فائقة، فضحك تعبيرا على فرحه وسروره. وقال بكلامه الذي يغلب عليه التلعثم « Aerin

«ayayd arumi dat neqqagh assadgh» معناه:«طوبى لي أقتل عددا كبيرا من الروميين اليوم». وللإشارة، فقد كان إلى حدود لحظته قد قتل 13 جنديا فرنسيا. وللأسف، استشهد في ذلك اليوم بأزغار إيرس. فأخذ رفيقه ساقل سلاحه، واتجه نحو تيماريين يجر أحزانه.

حزن كل أفراد قبيلة أيت حديدو من مقتل المقاوم أوحمايو. أما رفاق أوحمايو فقد استشهد واحد منهم بمعركة أيت يعقوب والآخر بين تاوريرت و أقديم[01].

4- المقاوم بوعثا

ينحدر المقاوم بوعثا من قرية أيت الغازي، بالتجمع القروي إملشيل[2]. يروي عنه الحاج أوبنمو، وهو رجل معروف بصدقه واستقامته، أن بوعثا كان يتزعم المقاومين بالمنطقة وخص منهم بالذكر : علي أوموح، احساين أوعلي، أوعليلي، علي أوحساين، وكل هؤلاء كانوا يَقتلون ويُقتلون، في ساحة الوغى. وأضاف الشاهد المذكور أن الطائرات كانت تقصف قرية إملشيل ومحيطها، مما دفع الكثير من أهل القرية إلى الهروب نحو جبل تارصطفت Tarstaft قرب موضع تاسنت شمال جبل باب نواياد وتيغبولا تومليلين (العيون البيضاء) ، غير البعيدة عن الموضع المذكور. ولما أوشك أزيز الطائرات الحربية أن يهدأ، بدا للمقاوم بوعثا أن يقسم أتباعه قسمين، ثم صعد جبل تانفولت لاستطلاع الميدان ورصد العدو. والهدف من هذه الخطة الحربية المعروفة بخطة الكماشة، تطويق العدو من جهتين على الأقل. أو من جميع الجهات. ولقد مكنت جغرافيا المنطقة، طبيعة التضاريس الجبلية والبنية

الطوبوغرافية للمكان، من تنفيذ تلك الخطة بإحكام. فالعدو المتمركز بالمنطقة لا يمكن له أن يسلك في هذا الوسط سوى أحد السبيلين، فإما أن يأتي من جهة بحيرة تيزليت، وإما أن يأتي من جهة تاسنت. وفي كلتا الحالتين، يسهل تطويق العدو، وإلحاق الهزيمة به. ولمعرفة السبيل الذي سيسلكه العدو، أو يسلكه، صعد زعيم المقاومين بوعثا جبل تانفولت لاستطلاع الميدان، وأعلم أتباعه بأنه سيلوح برداء من القماش ليريهم الجهة التي سلكها العدو. ولما بلغ قمة الجبل، رأى العدو يسلك السبيل الثاني، أي أنه سيأتي من جهة تاسنت، فتأهب المقاومون للهجوم. ولما اقترب العدو، تبين أن عددهم تسعة جنود، عاشرهم قائدهم. ولما سلكوا المنحدر متجهين نحو المقاومين، أتاهم القصف من عل ومن تحت، فقتلوا جميعا. ولم يدرك المقاومون، أن جنديا آخر تبعهم من الخلف، وهو الذي أدرك بوعثا من أعلى الجبل، بجانب صخرة ضخمة، فقصفه، لكن بوعثا، ألقى بسلهامه ليوهمه، فطفق الجندي يقصف السلهام زاعما أنه بوعثا كان يرتديه. ولبث يقصف السلهام حتى استنزف دخيرته، فأجهز عليه المقاوم بوعثا وأسقطه أرضا.

غادر المقاوم بوعثا وأتباعه المكان، متجهين نحو باب نواياد، لاعتراض الجنود القادمين من تاسنت. ولما تبين من كثافة العدو، أرشد بوعثا أتباعه للاختباء في كهف هناك، يظل على المسار الذي يسلكه الجنود للالتحاق بإملشيل. وفي وقت مبكر من الليل، شرع المقاومون في قصف العدو لكنهم لم يتوفقوا في إلحاق الهزيمة بهم. وعلى الرغم من صمودهم بعيدا في الكهف، فإن العدو تمكن من محاصرتهم. وعملا بأسلوب الترغيب عندما يفشل الترهيب، تمكن الجنود الفرنسيين من

إقناعهم بالاستسلام بعد أن قطعوا على أنفسهم بأنهم لن ينتقموا منهم. خرج المقاومون من الكهف فاعتقلوهم جميعا. وبعد ذلك أطلقوا سراحهم واحتفظوا بزعيمهم بوعثا معتقلا مقيدا بالأغلال بمعسكر تاسنت المسيج بأسلاك مشوكة. وحدث أنه في إحدى ليالي الشتاء الباردة كانت المنطقة مكسوة بالثلوج، وكان الحراس غافلين عما يحدث بالمعسكر مجتمعين على موقد النار طلبا للدفء، تمكن المقاوم بوعثا من تكسير الباب ليرتمي في الواد، ويسلك المجرى المائي لكي لا يترك أثارا في ركامات من الثلوج التي تكسو الربوع. سبح بعيدا في الواد حتى أدرك أنه قطع مسافة طويلة مبتعدا عن المعتقل فصعد الجبل بحثا عن المهجرين من سكان إملشيل، فلما وجدهم أنقدوه وضمنوا له النجاة من العدو. وحسب الرواية الشفوية فقد دعوا الحداد ليقطع السلاسل والأغلال المقيدة له ثم أطعموه. ويقال أن المدعو أحمد ورحو من إملشيل هو الذي فك أغلاله.

ولقد عاد بوعثا إلى حاله فشارك في الهجوم على ثكنة إفرغس المعمرة بالجنود والخيالة، والذي انجرت عنه خسائر فادحة، وحاز المقاومون على الخيل والأسلحة. فمن بين الذين حصلوا على الخيول أوعليلي وعلي أوحساين وعلي أوموح. وباختصار حصلت عشيرة أيت الغازي على ثلاثة فرسان.

5- حو ريري

هو احساين أوحدوش الملقب ب «حو ريري»، ينحدر من قرية إحوطين الكائنة حاليا بجماعة بوزمو. عرف احساين أوحدوش كذلك بلقب القناص، لبراعته في اقتناص العدو، وانتهاز الفرص في ساحة الحرب. شارك في عدة معارك

بالأطلس الكبير الشرقي، وكان يتقن استعمال الأسلحة المعروفة وقتذاك. ولا تزال ذاكرة المنطقة تحتفظ بمشاركته في معارك تغيغاشت بواد تلمي، ومعركة إحوطين ومعركة تغبالوت ن الطعام، قرب قرية أيت علي ويكو، ومعركة تيسكت ن تمدا جنوب غرب إملشيل، ومعارك أخرى، لا يتسع المجال لنفصل فيها القول. يقول عنه المسمى أوبامو، من أيت علي ويكو، وهو نجل أحد المجاهدين، استشهد في معركة أيت يعقوب، سنة 1929، أنه حصل هو وجماعة من المقاومين على أسلحة متطورة، وعتاد كبير بعد خوضهم لإحدى المعارك بقرية تغيغاشت، وهي معركة مصطريد التي سبقت الإشارة إليها (مايو 1931). ولأن المقاومين يجهلون كلهم استعمال تلك الأسلحة التي غنموها من المعركة، لذلك سلموها للمقاوم احساين وحدوش ليريهم كيف يوظفونها أحسن توظيف. ولقد شجعه اغتنامه لأسلحة متطورة ليعترض سبيل جيوش الاستعمار، ويلحق بهم خسائر فادحة في الأرواح. وكانت آخر معركة ضد المستعمر تشهد للمقاوم احساين وحدوش بالبسالة، معركة تيسكت ن تمدا (قمة النسر). وفي تلك المعركة استشهد المقاوم المذكور بعد أن كبد المستعمر خسائر في القتلى والجرحى. وقيل عنه أنه قبل أن يقتل برصاص العدو، قال لصاحبه : « أخي لحسن، اذهب إلى حال سبيلك، اذهب إلى قصر إحوطيين .. أوصيك خيرا ببناتي، فإني صامد هنا في قمة تيسكت ن تمدا حتى أقتل كل جنود الاستعمار الفرنسي أو استشهد في هذا المكان »، وبالفعل صمد حتى الموت.

6- موحى وزيد خابوط

هو موحى وزيد وهرمو خابوط من قصر السونتات، أحد المقاومين المشهورين بالمنطقة. يروي عنه المقاوم علي وحمو وهرمو رفيقه في كل المعارك، أنه كان يتزعم المقاومين ويحرضهم على القتال. وكان شجاعا لا يخشى الموت. وهو رجل فولادي بكل ما تحمله الكلمة من معنى. كان متزوجا من امرأتين ترافقانه في كل المعارك. وهما المرحومة هدة أوعلو وضرتها إيطو وخويا. وكانتا تحملان جثث الموتى على ظهريهما إلى مكان الدفن الجماعي. وأما الجرحى فتنقلانهم إلى مكان الإسعاف. والمرأتان المقاومتان هدة ويطو تقودان كل نساء السونتات للمشاركة في المقاومة. ومعروف عن نساء المنطقة أنهن يحملن على ظهورهن قرب الماء لسقي المقاومين ومزاود من الزاد وهو دقيق بندق «الزميطة» لإطعامهم. ويضيف علي أوحمو وهرامو :« كنت ألاحظ لباس المرحومة هدة أوعلو كما لو مزقتها الفئران. فهو كثير الثقب لإصابتها بالرصاص والغريب أن الطلقات النارية تحدث ثقبا في لباسها ولم تصب جسمها... وتلك معجزة إلهية، لا ريب فيها.. وأنا بدوري لم أصب بجروح طيلة الحروب التي شاركت فيها مع إخواني المقاومين.. ولم أنكر أن ملابسي تشبه ملابس المرحومة هدة وعلو لكثرة الثقب المبثوثة على ظهري بفعل طلقات النار». ويقول في تعليقه على الحدث : «أقسم بالله أن ذلك ترك وقعا حزينا في نفسي لا يزال أثره يؤلمني إلى اليوم. إن عمري يناهز الآن مئة سنة. ليتني أصبت برصاصة واحدة لأحمل معي رسالة الجهاد إلى الباريء تعالى». ويقول عن المعارك التي خاضها «كان من أبرز المعارك التي خضناها، معركة تيسكت ن تمدا، تيكيكت ن إملوان، أغنبون ورز، ويكرثال والقائمة طويلة.. وفي

معركة ويكرثال كنا 13 مقاوما ،لم ينج منا إلا عبد ربه، وشخص آخر يدعى سعيد أوموح نايت علي أولحسن بقصر تيزكات».

«وذات مرة، كنا بصدد الهجوم على مخيم العدو.. كنا نجهل أن أربعة أمتار فقط، تفصلنا عن موضع حراسة المخيم، فإذا بجندي يقصف أحد رفاقي، فانجر عن ذلك تطاير دماغه على وجهي.. حاول الجندي حشو بندقيته من جديد، وهي بندقية تسع ثلاث رصاصات فقط (تاثليت)، لكنه لم يسرع في تعبئتها فصاح الحاج خابوط أوهرمو، من عل مخاطبا إياي «أوت ألك إوت رب» اقصف يا رجل قصفك الله، فقصفته فتطايرت الأرجل وثنيت لتلامس رأسه، فغنمت بندقيته الثلاثية.. وكان فرحي عظيما، نزع منها المرحوم موحى وميمون رصاصة. وتقدمنا في سيرنا في غفلة عن وجود جندي ذي مدفعية ثقيلة فوق جبل تزاليمت.. ولما أدركناه قصفنا المدفعية، فأصابت شخصا إصابة قوية نتج عنها فصل رأسه عن جسده، وتدحرج الرأس إلى الأسفل وتحولت أطرافه إلى أشلاء. وباختصار، كانت المدفعية التي غنمتها شديدة الفتك بالمجاهدين».كان الحاج خابوط أوهرامو صاحب الأمر والنهي في كل المعارك التي خاطها، وكان صديق المقاوم حني أوسيدي الذي كان بدوره مقاوما شرسا. وكان جسده مندملا من كل جانب في كثرة الرصاص الذي أصابه. ولقد لعب الحظ بقدره، حيث توفي بعيدا عن ساحة الحرب. وقيل عن المرحوم حني أوسيدي أنه ذات مرة نفد مدخره من الرصاص فطرده فرنسي فرصده حتى أدركه. لكنه لم يتمكن من قتله، حيث راوغه المرحوم حني وسيدي وسدد له طعنات بالسكين، فسقط من أعلى الفرس. ولأن

الحاج خابوط وهرمو وحني وسيدي ينحدران من عشيرتين، لا تربط بينهما قرابة دموية، ولأنهما أثرياء قرية السونتات وقتذاك، فإن كلمتهما مسموعة بالقرية، فالأول يقود عشيرة أيت اهرمو والثاني عشيرة أيت صالح.

الهوامش:

1 - من رفاق أوحمايو رهوش و موكا و بوييغد.

2 - يضم التجمع القروي إملشيل، أيت الغازي، أيت توشنت، أيت الشيل، بوتغبالوت.

الملاحق

أبرز المقاومين بأيت حديدو :

الاسم	المكان
سيدي بن احماد	تيلمي
سيدي المقدم	تيلمي
أوهرامو الحاج خابوط	السونتات
حني أوسيدي	السونتات
علي أوحمو أوهرامو	السونتات
ساقل	تيماريين
رهوش أوحمايو	تيماريين
علي أوحمايو	تيماريين

موحا أوحمايو	تيماريين
باسو أورحو	أقديم
أكرون أيت عدريش	أقديم
اولعزو	أكدال
حرو	أكدال
موحى أوعينا	أيت علي ويكو
موحى أوهركا	أيت علي ويكو
حساين أوحدوش	تيغرمت إحوطين
أوبن مو	إملشيل
سيدي موح أومولاي	توربطيت
أوكرا	بوزمو
بناصر أوعثمان	ألمغو
أوبحى	ألمغو

أحزيط	تمستيرت
أولسوبا	تغيغاشت
زوح أورهي	أيت علي ويكو
موزي	إملشيل
أحمد أورحو أمزيل	إملشيل
عدين	أيت كرهور
عبيد ن أوميمون	إزناكن
بوعثا	أيت الغازي

معجزات المجاهدين :

1- سقط علي همي الملقب ب (علالوش) من أعلى قمة بادو بفعل القصف وهو صبي في قماطه وتدحرج حتى السفح ونجى بأعجوبة من الموت.
2- أصيب قدى أوزروال برصاصة على مستوى السرة وخرجت الرصاصة من على ظهره وقبط بيده على جرح الرصاصة ولم يمت وعاش بعد الاستقلال.
3- سجن بوعثا في إملشيل مقيد اليدين و الرجلين بسلسلة حديدية في زنزانة مقفلة ومسيجة بأسلاك شوكية واستطاع الهروب من السجن بقيوده وارتمى في النهر وسبح مسافة طويلة بالليل والثلوج تغطي المنطقة.
4- ربطت جثة سيدي ابن أحمد على مدفعية ثقيلة وقصف به وانفجرت المدفعية وقتل 12 شخصا في صفوف الفرنسيين.

5- هدة علو زوجة الحاج خابوط أوهرامو من أبرز المجاهدين وزوجته هذه المجاهدة تمزقت ملابسها من على ظهرها في أماكن مختلفة ولم تصاب في جسدها ولو بجرح بسيط.
إنها بحق فضائل ومناقب الشرفاء و النبلاء.

أسماء المعارك في أيت حديدو بإملشيل :

- ✓ أيت يعقوب معركة أيت يعقوب الشهيرة سنة 1929
- ✓ تاحيانت معركة تاحيانت الشهيرة.
- ✓ أتربات معركة لاست.
- ✓ أقديم معركة أزغاريرس.
- ✓ أقديم معركة إزكزاون .
- ✓ أقديم معركة أقان أوكني.
- ✓ تيلمي معركة مسطريط.
- ✓ تيلمي معركة تاكجيمت نعاري.
- ✓ إملوان معركة إكيك.
- ✓ السونتات معركة تيسكت ن تامدا الشهيرة.
- ✓ أيت علي ويكو معركة تاغبالوت ن الطعام.
- ✓ السونتات معركة تيزي نوغروم.
- ✓ إملوان معركة تيكيكت.
- ✓ إمطغاس معركة أغنبو نورز.
- ✓ أيت هاني معركة ويكرثال.
- ✓ موتزلي معركة تاقات ن حد منصور.
- ✓ إملشيل معركة تارصطفت.
- ✓ إملشيل معركة تاسنت.
- ✓ إمطفاس معركة بويقولا.

- ✓ أيت هاني معركة بادو الشهيرة سنة 1930 شهر غشت.
- ✓ أيت هاني معركة حمدون الشهيرة سنة 1930.
- ✓ السونتات معركة تيسطرين ن إمناين.
- ✓ أيت علي ويكو معركة تيسكت ن تاجويرات.

أبشع جرائم الاستعمار الفرنسي بقبائل أيت حديدو إملشيل :

1- حرق المحاصيل الزراعية لتجويع الأبرياء.
2- قصف السوق بالسونتات.
3- قصف زاوية أيت سيدي ملجأ النساء والأطفال والشيوخ بتيلمي.
4- بتر رجل سيدي أحمد أولقاضي وقطع يد عدنيني وهم أحياء بتاغيغاشت.
5- قصف الدواب والحيوانات بأقا ن أوكني بأقديم فأصيب بغل بشطايا وفر هاربا وماتت أنثى الحصان وبقي مهرها يرضع من ثدييها.
6- قصف الأعراس الجماعية تيمغريون بالسونتات.
7- تم قصف مسجد بأيت علي ويكو في ليلة القدر المباركة وهو مليء بالمصلين.

الفهرس